﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

الإصلاح

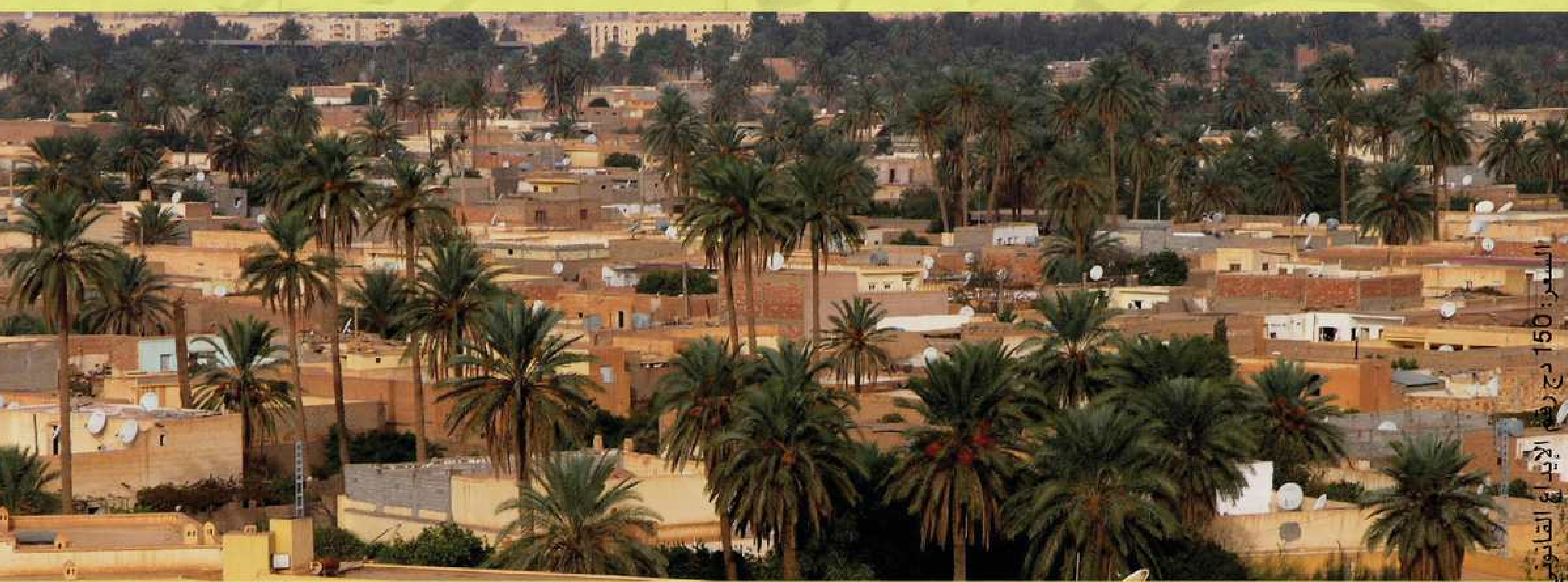
لا يُصلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إلاّ مَا أَصْلَحَ أَوَّلَـهَا

مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

السنة الرابعة . العدد الثالث والعشرون: ذو القعدة/ذو الحجة 1431هـ الموافق لـ نوفمبر/ديسمبر 2010م



الاعتناء بالدين



السعر: 150 دج رقم الإيداع القانوني: 3623 .2006 ISSN: 1112. 6825

نابغة الأغواط.. الشيخ أبو بكر الحاج عيسى

سمير سمراد



فهوم خاطئة في موالاة الكفار

عبد المالك رمضاني



روائح المسك من فوائد قصَّة الإفك

سليم مجوبي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنْفُسِنا ومِنْ سَيِّئَاتِ أعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [سُورَةُ آلِ عِمۡرَان].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [سُورَةُ الأَحۡزَابِ].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وكُلَّ ضَلالَةٍ في النَّارِ.



مجلة جامعة

تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

دار الفضيلة

المدير

توفيق عمروني

رئيس التحرير

عز الدين رمضاني

أعضاء التحرير:

عمر الحاج مسعود

عثمان عيسي

نجيب جلواح

التصميم والإخراج الفني:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

الطباعة:

مطبعة الديوان

عنوان المجلة:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حي باحة (03)، رقم (28) الليدو.

المحمدية ـ الجزائر

الهاتف والفاكس:

(021) 51 94 63

التوزيع (جوال): 08 53 62 (0661)

البريد الإلكتروني:

darelfadhila@maktoob.com

الموقع على الشبكة العنكبوتية:

www.rayatalislah.com





مدير المجلة

من المعوِّقات الَّتي تقعد بالعبد عن بُلوغ مآربه وتَحقيق آماله داء الفُتور، وهو داءٌ خطيرٌ، والعيبُ أن يصيبَ من كانَ على الاستقامة، ومُلازمًا للعلم الشَّرعي، ويشتدُّ العيب إن كان المصابُ معلِّمًا النَّاس الخير ثمَّ تركه واستسلم للفُتور.

والفُتور هو السُّكون بعد الحدَّة واللِّين بعد الشِّدَّة والضَّعف بعد القوَّة، وهو التَّراخي بعد الجدِّ، والكسل بعد النَّشاط، والميل إلى الرَّاحة والانقطاع عن العمل بعد الاستمرار عليه.

والعبد لا يسلمُ من نوبات الفُتور تُصيبه بين الفَينة والأخرى، لكن ينبغي التَّفطُّن لأمرين: أوَّلهما: أن لا تجرَّه الفَترة بعيدًا فتُردي به في مهاوي الرَّدى ومخالفة الشَّريعة، والأمر الثَّاني: أن لا يركن إليها فتطول مدَّتُها إذ يُخشى أن يُختم له بسوء ـ والعياذ بالله ـ. قال ابنُ القيِّم رحمه الله في «مدارج السَّالكين» (122/3): «فتخلُّل الفَترات للسَّالكين أمرٌ لازمٌ لابدَّ منه، فمَن كانت فترتُه إلى مُقاربة وتَسديد، ولم تُخرجه من فرض، ولم تُدخله في محرَّم، رُجي له أن يعُودَ خيرًا ممَّا كان؛ قال عُمَر بن الخطَّاب رضي الله عنه وأرضاه: «إنَّ لهذه القُلوب إقبالًا وإدبارًا، فإذا أقْبلت فخُذوها بالنَّوافل، وإن أدبَرت فألْزمُوها الفَرائض»».

فإذا فتر العبد عن النَّوافل؛ فلا يَدع الفرائض، وإذا توسَّع في المباحات فلا يجرؤ على المحرَّمات، وإذا خفَتَ نشاطُه في الخير، فليس إلى حدِّ التَّرك والعُزوف وتَغيير الوجهة، حتَّى لا ينطفئ الأمل في عودته إلى ما كان عليه من الخير أو أحسن منه، قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ**».

والفتور ليس توقُّفًا فحسب، بل هو تأخُّر؛ لأنَّ العبد في هذه الحياة إمَّا متقدِّمٌ وإمَّا متأخِّرٌ، وليس بينهما شيءٌ اسمُه التَّوقُّف، قال تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ «ولم يذكر واقفًا، إذ لا منزل بينَ الجنَّة والنَّار، ولا طريقَ لسالك إلى غير الدَّارين البتَّة، فمَن لم يتقدَّم إلى هذه بالأعمال الصَّالحة، فهو متأخِّرٌ إلى تلك بالأعمال السَّيِّئة»، قاله ابن القيِّم في «مدارج السَّالكين» (267/1).

ويُستعان على التَّخلُّص من آفة الفُتور باللَّجأ إلى الله تعالى والاطِّراح ببابه، وكثرة سؤاله، والله الهادي.

في هذا العدد

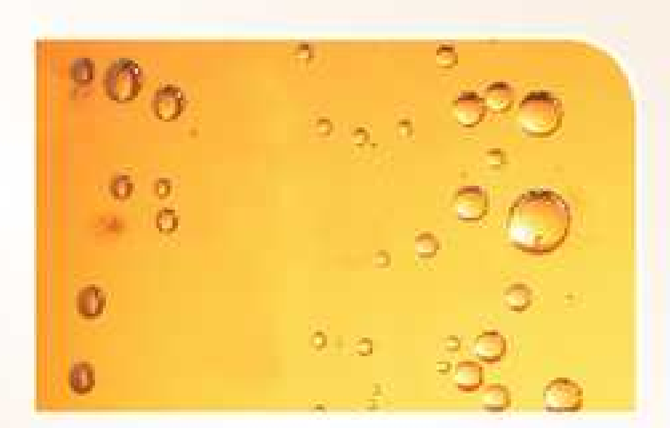
التحرير

الاعتناء بالدين



عثمان عيسي

حديث: لا تطروني...



سليم مجوبي

روائح المسك من فوائد قصة الإفك

العدد السابق



قواعد النشر في المجلة

- أن تكون الموضوعات مطابقة لخطة المجلة، وموافقة لمنهجها.
- أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.
- أن يحـرَّر المقال بأسلوب يحقق الغرض، ولغة بعيدة عن التكلف والتعقيد.
- الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.
- أن تكون الكتابة على الكمبيوتر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.
- ألا يزيد المقال على خمس صفحات.
- أن يذكر صاحب المقال اسمه الكامل وعنوانه ورقم هاتفه، ودرجته العلمية إن وجدت.
- المقالات أو البحوث التي لا تنشر لا تردُّ لأصحابها.

الاعتناء بالدِّين

التَّحرير

لقد طغت علينا سيول المدنيَّة الجارفة الكاذبة، ومظاهر الحضارة الزَّائفة الخادعة؛ فأنسَتنا كثيرًا من حقائق ديننا الحنيف، وألهتنا طويلاً عن مهمَّات شريعتنا السَّمحة، واقتَلعت من قلوب كثيرٍ منَّا حبَّ الدِّين واحترامَه والغيرةَ عليه، والدِّفاع عنه والذَّبَ عن حياضه، وصرفت أبصارنا عمَّا بين أيدينا من كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، فتسمع وتقرأ يوميًّا في وسائل الإعلام المختلفة معالجةً لقضايا كثيرةٍ ومسائل مختلفة تعترض حياة المسلمين اليوم، فيتوارد المتدخِّلون ويتتابع المناقشون ويتكلَّمُ الأساتذة والدَّكاترة والمثقَّفُون والمختصُّون ولا تكادُ تسمَع أحدًا منهم يجمِّل كلامَه ويزيِّن منطقَه بإيراد نصٍّ من الوحي المنزَّل الَّذي تتشرَّف به هذه الأمَّة.

ومثال ذلك أنَّهم في كلِّ عام ينصبون يومًا أو أيَّامًا للحديث عن مرض فقدان المناعة (الإيدز أو السِّيدا)، فتُنفق السَّاعات الطَّويلة والأوقات الكثيرة في النِّقاش والكلام، فيلفتُ انتباهك أن لا أحد منهم يجري على لسانه مثل قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء]، كأنَّهم يتحاشون حتَّى ذكر لفظ الزِّنى، ويستبدلونه بقولهم: علاقةٌ جنسيَّة أو اتِّصال جنسيٌّ ونحوها من العبارات المولَّدة المترجمة عن اللُّغة الأجنبيَّة، مع أنَّ في تسمية الأشياء كما وردت في القُرآن والسُّنَّة آثارًا طيِّبة على المتكلِّم والمخاطَب، وفيها تنبيهٌ للغافل، وتذكيرٌ للنَّاسي.

ثمَّ قد يتعدَّى آخـرون فينصحون النَّـاس بالحذر وأخذ الحيطة واتِّخاذ الأسباب الَّتي تجنِّبهم انتقال (الفيروس) عند الاتِّصال الجنسي، ولا يعرِّجون في كلامهم - ولو إشارةً - على أنَّ هذه العلاقة محرَّمة وممنوعةٌ في الشَّرع والدِّين، وهذا يؤول إلى الانحلال الخلقي، واستباحة ما حرَّم الله بطَريقة فيها كثيرٌ منَ المكر والدَّهاء، وتهوينٌ من شأنٍ كبيرةٍ هي من أعظَم الكبائر الَّتي تعود بالضَّرر على الأمَّة أفرادًا وجماعات، فكان الأولى بهؤلاء النَّاصحين المشفقين على صحَّة أمَّتهم - إن كانوا حقًّا ناصحين - أن يعودوا إلى رُشدهم، وأن يُدركوا أنَّ مخاطَبيهم ليسوا سوى أفرادٍ مسلمين، يؤثِّر فيهم سماعُ أوامر الشَّارع ونواهيه أكثر ممَّا يؤثِّر فيهم كلام طبيب حاذق أو أستاذ عارف أو أيِّ أحد من النَّاس؛ إنَّنا مسلمون ولا رادع لنا مثل الدِّين، فبالدِّين تُضبط الأنفس، وبالدِّين يُقمع الهوى، وبالدِّين تُهذَّب الغرائز.



فإذا أردنا إعداد أجيالنا للحياة الفاضلة، فلابدَّ من توجيه العناية بالدِّين وترسيخ هيبَته في قلوب النَّاشئة في جميع مراحل حياتهم بدءًا بالمراحل الأولى من الطُّفولة ثمَّ سنِّ المراهقة، إلى مرحلة الشَّباب

فإذا أردنا إعداد أجيالنا للحياة الفاضلة، فلابدَّ من توجيه العناية بالدِّين وترسيخ هيبَته في قلوب النَّاشئة في جميع مراحل حياتهم بدءًا بالمراحل الأولى من الطُّفولة ثمَّ سنِّ المراهقة، إلى مرحلة الشَّباب، وهكذا حتَّى يتزوَّدوا بقسط وافرٍ من أحكام الدِّين وعقائدِه وآدابِه، ليكونَ حصنًا منيعًا في وجه الشُّبهات

والشَّهوات، وصخرةً قويَّةً تتحطَّم عندها هجمات الانحراف، ووقايةً من السُّقوط في أوحال الفواحش والرَّذائل، فالنَّاشئ إذا شبَّ على الجهل بحقائق الدِّين سهل عليه التَّجافي عنه، والبُعد عن شرائعه وآدابه وأحكامه، حتَّى صرنا نسمع بمن يتخلَّى عنه إلى دين آخر، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

وإنَّ ممَّا ينبغي أن يُعلم أنَّه لا يمكن أن نَنْعَم باستقامة أحوالنا إلَّا إذا لزمنا الدِّين الصَّحيح المنزَّل من عند ربِّ العالمين على نبيِّه الأمين ﷺ من غير تحريف ولا تبديل، فمِن أعظم القبائح الجناية على الدِّين بأن نُلحق به ما ليسَ منه تحت أيِّ مسمًّى من المسمَّيات، فالمستلبون والتَّغريبيُّون يميِّعون أحكام الدِّين ويعطِّلون كثيرًا من نصوصه حتَّى لا يبقى منه سوى مظاهر يسيرة لا تكاد تميِّز بها بين مسلم وكافر بدعوى المصلحة والتَّجديد ومواكبة العصر، ويرفعون شعار التَّفتُّح وطرح الجمود على النُّصوص إلى حدِّ ترك الواجبات وإتيان المنهيَّات، وهذا مروقٌ من الدِّين، وانصرافٌ عن أُسُسه وإبطالٌ لأحكامه.

كما أنَّ أصحاب الطُّرق الصُّوفيَّة يسطون على عقيدة التَّوحيد ويعتدون على مقام الألوهيَّة، فيعظِّمون مشايخَهم إلى حدِّ القداسة، ويتوجَّهون إلى القِباب وأضرحة الصَّالحين بالدُّعاء والتَّوسل، وفي هذا مساسٌ صريحٌ بصُلب الدِّين وخدش في عقيدة التَّوحيد، ممَّا يورِّث عندهم استهانةً بباقي الأحكام والشَّرائع.

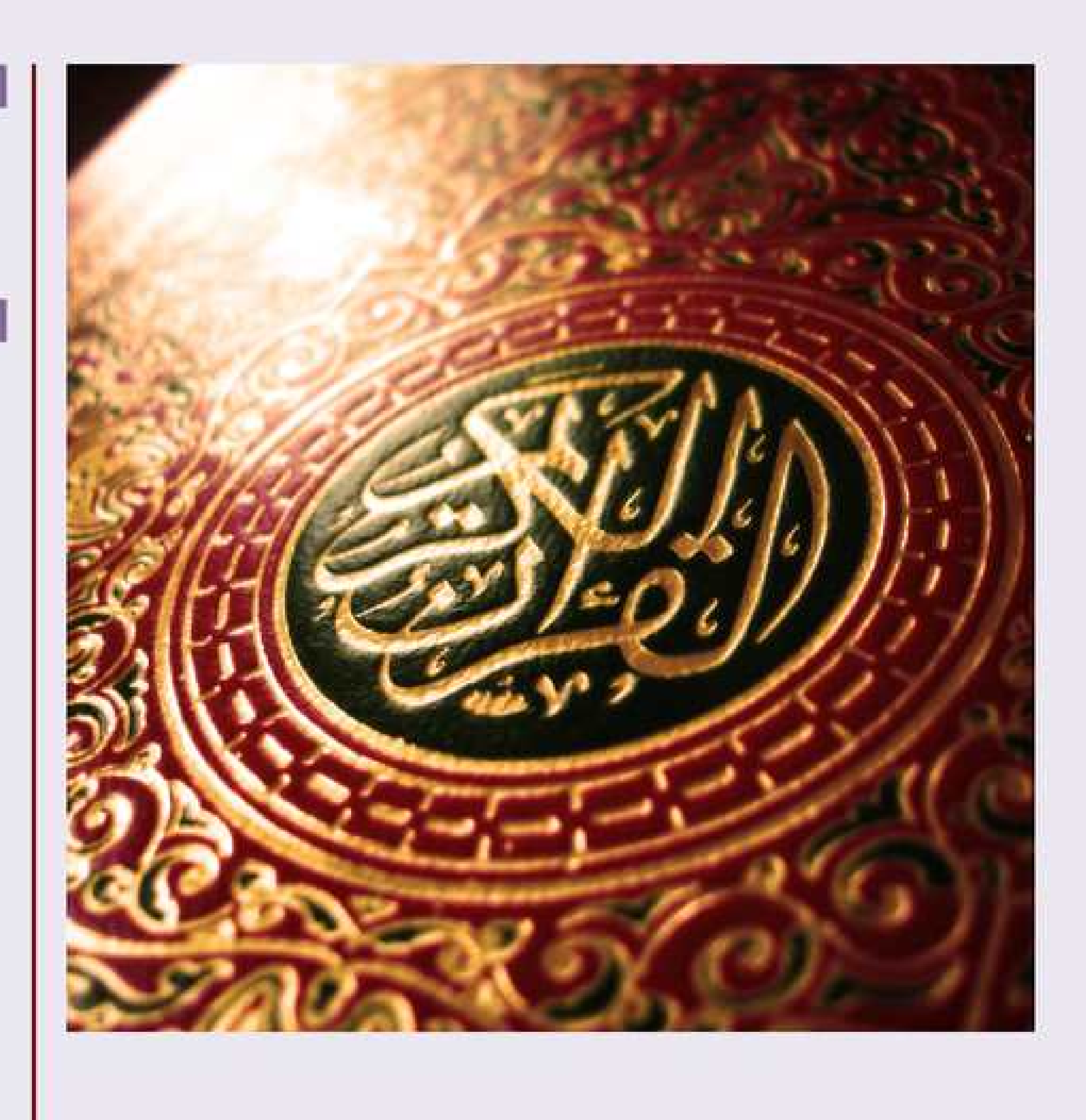
إنَّ الدِّين إذا أُخِذ بغير الطَّريقة الَّتي أَخَذه بها السَّلف الصَّالح ـ رضوان الله عليهم ـ فثمرة ذلك اعوجاجٌ في الفكر والعقائد، وانحرافٌ في العبادات والسُّلوك؛ لأنَّ الغاية المرجوَّة من لزوم الدِّين هي نيل رضى الله تعالى، وإنَّ رضى الله قد تحقَّق لهؤلاء السَّلف كونهم فاقوا غيرهم في العلم والعمل بالدِّين الَّذي أنزله الله سبحانه، وشهد لهم الوحي بذلك، قال النَّبيُّ ﷺ: «**خَيرُ النَّاسِ قَرني ثُمَّ الَّذينَ يَلُونَهُم ثُمَّ الَّذينَ يَلُونَهُم**»؛ فمَن كان مؤمِّلا خيرًا وراجيًا رضى الرَّبِّ ـ عزَّ وجلَّ ـ فما عليه إلَّا أن يتحرَّى ويلزم الدِّين الَّذي استقام عليه هَؤلاء الأماجد، وبلَّغوا أنوارَ هدايته حتَّى شاع النُّور وعمَّ الحبور، ليَبلُغَ ما بلغوه من العزَّة والكرامَة والرِّفعة، ولله درُّ إمام دار الهجرة حين قال: «لا يُصلِحُ آخِرَ هذه الأمَّة إلاَّ ما أصلَحَ أوَّلَها».

وعليه؛ فإنَّ الأصوات النَّشاز في أمَّتنا الَّتي تدعو إلى إعادة صياغة الدِّين، باسم التَّيسير على النَّاس ورفع الحرج، وموافقَة روح العصر، فيلفِّقون أقوالاً ويركِّبُون أحكامًا ليسَت على مذهب أحد من علماء السَّلف السَّابقين، بل تتبُّعٌ للرُّخص والزَّلل، وأخذٌ بالنَّادر والشَّاذِّ، فهم بذلك يُلحقون بالدِّين ما لحقَ بالشَّرائع المنسوخة من التَّحريف والتَّبديل والتَّغيير، وذلك بتأويل النُّصوص الصَّريحة وليِّ أعناقها بما يوافقُ الأهواءَ ويماشي الأذواق، وفي ذلك نخرٌ لمقاصد الإسلام ومناقضةٌ لأحكام الدِّين، وإنَّ صنيعَهم هذا صنفٌ من صُنوف كيد الأعداء شعَروا أو لم يشعُروا، ولله في خلقه شؤون.

إنَّ مظاهر البدع والمحدثات من وسائل إضعاف الدِّين في نفوس النَّاس، ومن أشدِّ العقبات الَّتي تقف في وجه الرَّاغبين في لزومه والاستقامةِ عليه، ذلك لأنَّ العقول السَّويَّة والفِطر السَّليمة تنفر من تلك المظاهر المشوِّهة لجمال هذه الشَّريعة الغرَّاء، فإنْ أردنا صَلاحًا وإصلاحًا فلا أفضل من تمثُّل كلمة الإمام مالك رحمه الله الرَّائعة: «فما لم يكُن يومئذ دينًا، لا يكون اليوم دينًا»، وبه يكون كلُّ حكم أو طريقة أو عبادة لم يكن عليها النَّبيُّ ﷺ وأصحابه ومعهم القرون المشهود لها بالخيريَّة ولم يتَّخذوها دينًا، فمِن غير الصَّواب جعلُها اليوم من الدِّين، بل هو خلاف الصِّراط المستقيم الَّذي أُمرنا بلزومه والاستقامة عليه؛ قال العلاَّمة ابن باديس رحمه الله في «تفسيره» (269/1): «وما ذلك الصِّراط المستقيم إلاَّ القُرآن العظيم، والهدي النَّبوي الكريم، وسلوك السَّلف الصَّالح، وذلك هو دين الإسلام».

والله الهادي إلى سواء السَّبيل وأقوم دين، ولا ربَّ سواه.

إنَّ الأصوات النَّشاز في أمَّتنا الَّتي تدعو إلى إعادة صياغة الدِّين، باسم التَّيسير على النَّاس ورفع الحرج، وموافقَة روح العصر، فيلفِّقون أقوالاً ويركِّبُون أحكامًا ليسَت على مذهبِ أحد من علماء السَّلف السَّابقين، بل تتبُّعٌ للرُّخص والزَّلل، وأخذٌ بالنَّادر والشَّاذِّ، فهم بذلك يُلحقون بالدِّين ما لحقَ بالشَّرائع المنسوخة من التَّحريف والتَّبديل والتَّغيير



﴿تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾

البيان في أخطاء الاستشهاد بآي القرآن

.الجزء السَّادس.

عز الدِّين رمضاني
رئيس التحرير

من الآيات الَّتي يَكثر الاستدلال بها في مجال التَّحريم والمنع، وحصول الضَّرر أو وقوعه؛ قوله تعالى: ﴿تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة: 195].

والآية الكريمة وإن كانت تتناول كلَّ ما فيه هلاك الإنسان من حسِّي أو معنويٍّ؛ كتفريط في واجب، أو فعل لمحرَّم، أو تعريض النَّفس للمخاطر؛ فإنَّ الاستدلال بها على التقاعس عن العمل لنصرة دين الله خطأ ظاهر.

ويظهر ذلك في استشهادات وكتابات من تبنى منهج التيسيير المعاصر.

والرَّدُّ عليهم يكمن فيما يلي:

أوَّلاً: أنَّ سبب نزول الآية فيه الإفصاح عن معنى التَّهلكة في الآية، وأنَّه الإقامة في الأموال وإصلاحها وترك الجهاد، فعن أسلم أبي عمران قال: غزونا من المدينة نريد القسطنطينيَّة وعلى الجماعة عبد الرَّحمن بن خالد بن الوليد، والرُّوم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجلٌ على العدوِّ؛ فقال النَّاس: مه مه! لا إله إلاَّ الله! يلقي بيديه إلى التَّهلكة؛ فقال أبو أيُّوب: «إنَّما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لمَّا نصر الله نبيَّه وأظهر الإسلام؛ قلنا: هلمَّ نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة: 195]؛ فالإلقاء بالأيدي إلى التَّهلكة أن نقيمَ في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد...»[1].

وفي «صحيح البخاري»[2] عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «نزلت في النَّفقة».

...

(1) أبو داود (2512)، والتِّرمذي (2972)، وإسناده صحيح.
(2) برقم (4516).

ثانيًا: أنَّ بعض الصَّحابة فسَّر التَّهلكة في الآية بأنَّها الإمساك عن النَّفقة، فعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «ليس التَّهلكة أن يقتل الرَّجل في سبيل الله، ولكن الإمساك عن النَّفقة في سبيل الله»[3].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «هو ترك النَّفقة في سبيل الله»[4].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أنَّه قيل له: الرَّجل يحمل على المشركين أهو ممَّن ألقى بيده إلى التَّهلكة؟ قال: «لا؛ لأنَّ الله - عزَّ وجلَّ - بعث رسول الله ﷺ فقال: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ﴾ [النساء: 84]، إنَّما ذاك في النَّفقة»[5].

■ ■ ■

ثالثًا: أنَّ جمهور المفسِّرين[6] من التَّابعين ومن بعدهم فسَّروا التَّهلكة بأنَّها ترك النَّفقة في سبيل الله ومنه الجهاد، وهو قول سعيد بن جبير (ت95هـ)، ومجاهد (ت104هـ)، وعكرمة (ت105هـ)، والضَّحَّاك (ت105هـ)، والحسن البصري (ت110هـ)، وعطاء (ت114هـ)، وقتادة (ت117هـ)، والسُّدِّي (ت128هـ)، والأعمش (ت148هـ)، ومقاتل بن حيَّان (ت150هـ)، ومقاتل بن سليمان (ت150هـ)، وغيرهم كثير[7].

■ ■ ■

رابعًا: أنَّ أبا أيُّوب الأنصاري رضي الله عنه ردَّ بأبلغ بيان على مَنْ فهمَ التَّهلكةَ بمعناها اللُّغوي، وعلى عموم اللَّفظ وشموله.

ويظهر من هذا الأثر - وقد تقدَّم - أنَّ أبا أيُّوب اعتمد في تأويله على سبب النُّزول، وهو سبب قويٌّ في فهم معنى الآية، ويقوِّي ما ذكره من معنى سياق الآية، وهو الأمر بالإنفاق في سبيل الله وسيأتي الكلام على ذلك.

■ ■ ■

(3) رواه ابن جرير في «تفسيره» (314/3)، وعزاه السُّيوطي في «الدُّرّ المنثور» إلى الفريابي وابن المنذر (322/2).

(4) رواه ابن جرير في «تفسيره» (313/3)، وعزاه السُّيوطي في «الدُّر» (321/2) إلى وكيع وابن عيينة وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(5) رواه أحمد (18477)، والحاكم في «المستدرك» (275/2).

(6) انظر: «تفسير ابن جرير» (312/3)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (331/1).

(7) أي من المفسِّرين الَّذين لم ينقلوا إلاَّ هذا المعنى - ترك النَّفقة - ومنهم: البخاري وابن أبي زمنين والعليمي وصاحبا «الجلالين» ورشيد رضا وآخرون.

خامسًا: أنَّ اقتحام الرَّجل صفوفَ العدوِّ إذا كان فيه إظهارٌ للشَّجاعة وإرهابٌ للعدوِّ وتقويةٌ وتجرئةٌ للمسلمين عليهم ونحو ذلك من المقاصد الحسنة لا يعدُّ إلقاءً باليد إلى التَّهلكة، وليس بمذموم وإن قُتِل، والمذموم في ذلك أن يكون عن تهوُّرٍ أو سببًا في وهن المسلمين[8]، فعن مدرك ابن عوف أنَّ النَّاس ذكروا عند عمر بعضَ مَنْ قُتِل في سبيل الله، وقالوا: قُتِل فلان وفلان وآخرون لا نعرفهم؛ فقال عمر: لكنَّ الله يعرفهم؛ فقالوا: ورجلٌ شرى نفسه؛ فقال مدرك ابن عوف: ذاك والله خالي يا أمير المؤمنين! يزعم النَّاس أنَّه ألقى بيديه إلى التَّهلكة؛ فقال عمر: «كذب أولئك، ولكنَّه من الَّذين اشتروا الآخرة بالدُّنيا»[9].

قال شيخ الإسلام في «جامع المسائل» (324): «فإن قيل: قد قال الله تعالى: ﴿ تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة: 195] وإذا قاتل الرَّجل في موضع فَغَلَبَ على ظنِّه أنَّه يُقتل فقد ألقى بيده إلى التَّهلكة.

قيل: تأويل الآية على هذا غلطٌ، ولهذا ما زال الصَّحابة والأئمَّة ينكرون على من يتأوَّل الآية على ذلك...».

■ ■ ■



(8) انظر «فتح الباري» لابن حجر (233/8).

(9) «مصنَّف» ابن أبي شيبة (33780)، و«السُّنن الكبرى» للبيهقي (7707)، وعزاه ابن حجر في «الفتح» (233/8) لابن جرير وابن المنذر وصحَّح إسناده.

سادسًا: أنَّ سياق الآية جاء في الأمر بالإنفاق في سبيل الله: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، «وإدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أولى من الخروج به عنهما إلاَّ بدليل يجب التَّسليم به»[10].

والدَّليل الَّذي يصرف له الكلام عن سياقه ولاحقه إمَّا أن يكون خبرًا صحيحًا متَّصل السَّند، وإمَّا أن يكون إجماعًا من أهل التَّأويل على تفسير الآية[11]، وليس عندنا شيء من ذلك يخرج المعنى عن سياقه.

قال شيخ الإسلام في «جامع المسائل» (326) بعد أن ساق الآيات الَّتي فيها الأمر بالجهاد والإنفاق في سبيل الله: «فهذه الآيات كلُّها في الأمر بالجهاد في سبيل الله وإنفاق المال في سبيل الله، فلا تناسب ما يضادُّ ذلك من النَّهي عمَّا يكمل به الجهاد وإن كان فيه تعريض النَّفس للشَّهادة، إذ الموت لابدَّ منه...» إلى أن قال: «وأيضًا فإنَّه في أوَّل الآية قال: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وفي آخرها: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة]، فدلَّ ذلك على ما رواه أبو أيُّوب من أنَّ إمساك المال والبخل عن إنفاقه في سبيل الله والاشتغال به هو التَّهلكة».

■ ■ ■

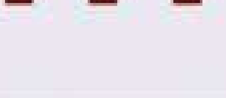
سابعًا: أنَّ بعض المحقِّقين من المفسِّرين الَّذين اختاروا العموم في الآية استثنوا هذه الصُّورة، وهي صورة اقتحام العساكر طلبًا للشَّهادة وإرهابًا للعدوِّ وما إلى ذلك من المقاصد الصَّحيحة، منهم:

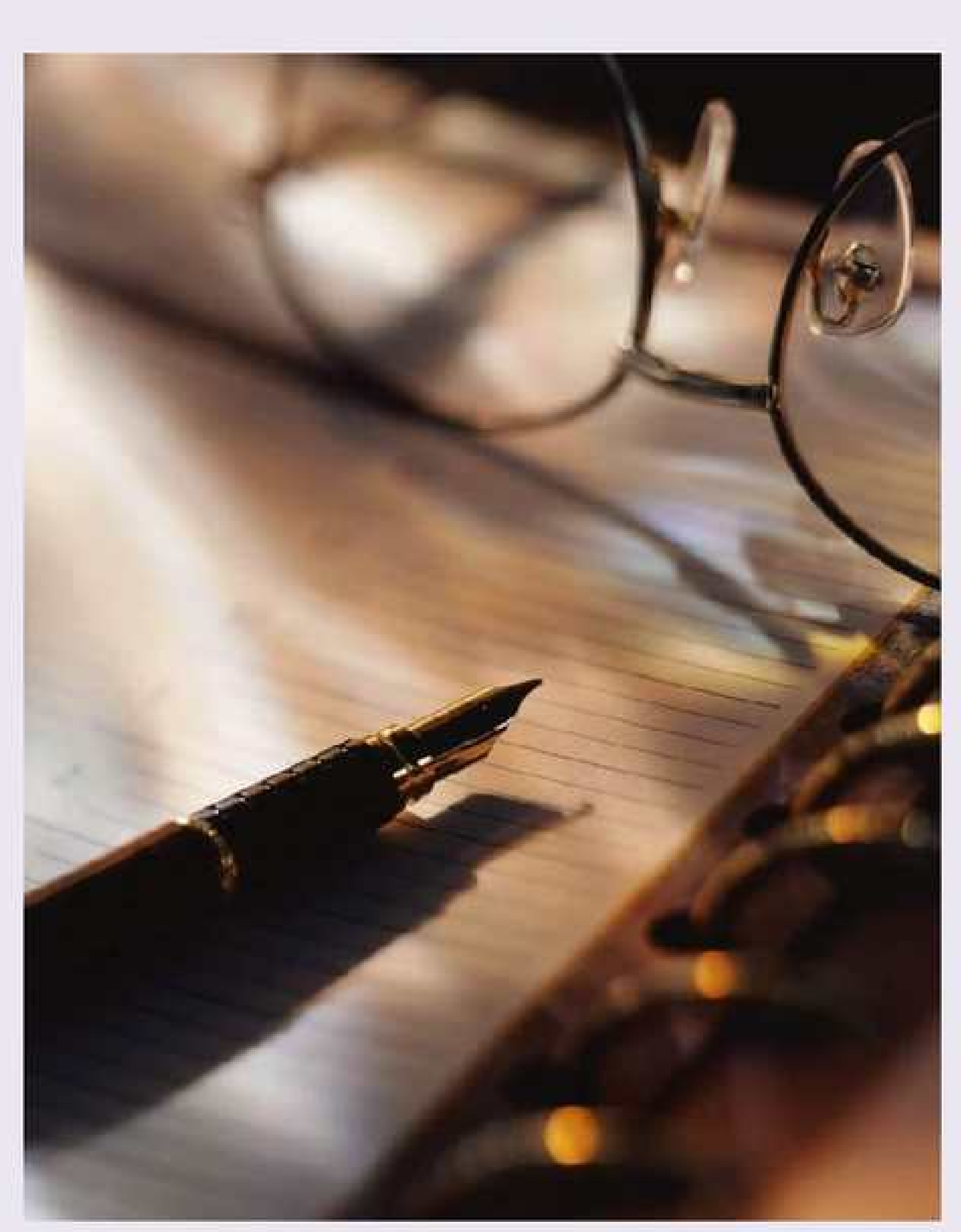
ـ القاضي أبو بكر بن العربي في تعقُّبه ابن جرير حين اختار العموم في الآية، قال كما في «أحكام القرآن» (166/1): «وقد أصاب إلاَّ في اقتحام العساكر؛ فإنَّ العلماء اختلفوا في ذلك»، ثمَّ رجَّح جواز الاقتحام فقال: «والصَّحيح عندي جوازه».

ـ وأبو حيَّان الأندلسي صاحب «البحر المحيط»، فقد قال بعد أن ذكر تسعة أقوال في تفسير التَّهلكة (79/2): «وهذه الأقوال كلُّها تحتمل هذه الآية، والظَّاهر أنَّهم نهوا عن كلِّ ما يؤول بهم إلى الهلاك في غير طاعة الله تعالى، فإنَّ الجهاد في سبيل الله مفضٍ إلى الهلاك، وهو القتل ولم ينه عنه، بل هو أمرٌ مطلوب موعودٌ عليه بالجنَّة، وهو من أفضل الأعمال المتقرَّب بها إلى الله تعالى».

■ ■ ■

ثامنًا: أنَّ من اختار العموم في الآية كابن جرير رحمه الله لم يُغفِل القول بأنَّ أوَّل المعاني دخولاً في معنى الآية وأولاها هو الإمساك عن النَّفقة في سبيل الله تعالى، قال كما في «تفسيره» (325/3): «غير أنَّ الأمر وإن كان كذلك ـ أي يحمل على العموم ـ فإنَّ الأغلب من تأويل الآية: وأنفقوا أيُّها المؤمنون في سبيل الله ولا تتركوا النَّفقة فيها فتهلكوا باستحقاقكم بترككم ذلك عذابي»، وهو ما ذهب إليه ابن حجر في «الفتح» (233/8) حيث قال بعد أن ذكر بعض الأقوال في تفسير التَّهلكة: «والأوَّل أظهر ـ وهو ترك النَّفقة ـ لتصدير الآية بذكر النَّفقة فهو المعتمد في نزولها، وأمَّا قصرها عليه ففيه نظر؛ لأنَّ العبرة بعموم اللَّفظ».





(10) انظر: «قواعد التَّرجيح عند المفسِّرين» لحسين الحربي (11/1).
(11) انظر: «تفسير ابن جرير» (268/7).

• إفادة لابدَّ منها:

إنَّ النَّاظر في تفاسير أهل العلم ونقولات المفسِّرين لمعنى الآية يجد أنَّها تتفاوت درجةً وصحَّةً على حسب ما اعتُمِد عليه من أدلَّة وقواعد في التَّرجيح.

فمن جعل معتمده سبب النُّزول كأبي أيُّوب الأنصاري رضي الله عنه؛ صرَّح بأنَّ التَّهلكة ترك الجهاد، ولا شكَّ أنَّ قوله حقٌّ وصواب.

ومن جعل معتمده سياق الآية كحذيفة بن اليمان رضي الله عنه والجمهور؛ بيَّن بأنَّ التَّهلكة ترك النَّفقة في سبيل الله، وهذا أيضًا حقٌّ وصواب.

ولا تعارض بين القولين ـ إن شاء الله ـ؛ فإنَّ المعنى الَّذي ذكره أبو أيُّوب رضي الله عنه داخلٌ في المعنى الَّذي قال به حذيفة رضي الله عنه «فإنَّه إنَّما ذكر الجهاد في تفسيره من باب التَّفسير باللاَّزم، فإن ترك النَّفقة في سبيل الله تعالى يترتَّب عليه ترك الجهاد بالنَّفس، فمن ضنَّ بماله ضنَّ بنفسه من باب أولى، ولا يصحُّ التَّفسير باللاَّزم إلاَّ مع الإقرار بالمعنى الأصلي...، ولعلَّ اختيار أبي أيُّوب رضي الله عنه لمعنى الجهاد من هذه المعاني لمناسبته للمقام والحال؛ فإنَّ ترك الجهاد وعدم الاستعداد والخلود إلى الدُّنيا والرِّضا بالإقامة فيها إلقاء باليد إلى التَّهلكة من جهة القعود وتمكين الأعداء من المسلمين؛ فيهلكوا الحرث والنَّسل»[12].

ويبقى أن نوضِّح أنَّ صحَّة المعنى المذكور عن أبي أيُّوب وحذيفة رضي الله عنهما وغيرهما لا يعني انحصار الصَّواب فيهما، فقد ورد عن عدد من الصَّحابة والتَّابعين تفسير التَّهلكة بأنَّها القنوط والإقامة على الذُّنوب، فقد قيل للبراء بن عازب رضي الله عنه: أرأيت قول الله: ﴿ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أهو الرَّجل يتقدَّم فيقاتل حتَّى يقتل؟ قال: «لا، ولكنَّه الرَّجل يعمل بالمعاصي ثمَّ يلقي بيده ولا يتوب»[13].

وجاء عن النُّعمان بن بشير رضي الله عنه قال: «كان الرَّجل يذنب الذَّنب فيقول: لا يُغفر لي، فأنزل الله: ﴿ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾»[14].

وقيل غير ذلك.

والمقصود التَّحذير من الاستشهاد بالآية على التَّقاعس عن العمل لنصرة دين الله كالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله[15] وفعل الطَّاعات الَّتي لا تنفكُّ عن المشقَّة كالحجِّ والصَّوم مخافة حصول ضررٍ غير متيقَّن، أو مشقَّة وهميَّة.

وفَّقنا الله لتدبُّر كتابه وفهم مقاصده والعمل بأحكامه، آمين.

■ ■ ■

(12) انظر: «استدراكات السَّلف في التَّفسير» لنايف الزَّهراني (228).

(13) رواه ابن جرير (320/3)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (332/1)، وقال ابن حجر في «الفتح»: «إسناده صحيح عن ابن جرير وابن المنذر».

(14) الطَّبراني في «الأوسط» (5672).

(15) ومن عجيب الأخبار أنَّ المستشرق الفرنسي ليون روش قام برحلة إلى مصر والحجاز سنة (1842) متنكِّرًا في زيِّ حاجٍّ مسلم من أجل الحصول على موافقة من العلماء على نصِّ فتوى جاء بها من الجزائر تجعل الجهاد ضدَّ الفرنسيِّين من باب إلقاء النَّفس إلى التَّهلكة، لكنَّ علماء الأزهر لم يوافقوه على تلك الفتوى، انظر: «تاريخ الجزائر» لمسعود الجزائري (284).

والمقصود التَّحذير من الاستشهاد بالآية على التَّقاعس عن العمل لنصرة دين الله كالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله وفعل الطَّاعات الَّتي لا تنفكُّ عن المشقَّة كالحجِّ والصَّوم مخافة حصول ضررٍ غير متيقَّن، أو مشقَّة وهميَّة



حديث «لا تطروني...»

عثمان عيسي

عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما سَمِعَ عُمَرَ رضي الله عنه يَقُولُ عَلَى المِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ».

أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء: باب قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: 16]، برقم (3445).

وأخرجه مطوَّلاً في كتاب الحدود: باب رجم الحبلى من الزِّنا إذا أحصنت، برقم: (6830).

وأخرجه الحميدي في «مسنده» (27)، وأحمد في «مسنده» (164، 154، 331)، والدَّارمي في «سننه» (2784)، وابن حبَّان في «صحيحه» (6239)، وأبو يعلى في «مسنده» (153)، والبزَّار في «مسنده» (194) والطَّيالسي في «مسنده» (24) وعبد الرَّزَّاق في «مصنفه» (9758).

● يدلُّ هذا الحديث على أصل كبير من أصول الدِّين الدَّالَّة على وسطيَّة دين الإسلام بين سائر الملل والشَّرائع، وهذه الوسطيَّة سمة امتاز بها دينُنا الحنيف، وخاصيَّةٌ من أعظم خصائصه وأبرزها، وأهلُه المنتسبون إليه بحقٍّ، أهلُ وسط، عدول، لا هُمْ بأهل غلوٍّ فيه، ولا هُمْ بأهل تقصير وجفاء، «فكما أنَّ الجافي عن الأمر مضيِّع له، فالغالي فيه مضيِّع له، هذا بتقصيره عن الحدِّ، وهذا بتجاوزه الحدَّ»[1].

■ قوله ﷺ: «**لا تُطْرُونِي**»: اختلفت عبارات أهل اللُّغة - في معنى الإطراء، فمنها ما يدلُّ على الثَّناء فقط، ومنها ما يدلُّ على المبالغة، ومنها ما يدلُّ على مجاوزة الحدِّ فيه، وإلى هذا الأخير نحا الأكثرون[2].

إذًا فـ«**الإطراء**» هو:

«**مُجاوَزَةُ الحَدِّ في المَدْحِ والكَذِبُ فيه، والزِّيادةُ في الثَّناء والغلوُّ فيه**».

■ قوله: «**النَّصارى**»: وهم أهل ملَّة من الملل الكتابيَّة، هكذا اسمهم في الكتاب والسُّنَّة، أمَّا تسميتهم بـ«**المسيحيِّين**» **فَغَلَطٌ**، نبَّه عليه علماؤنا المحقِّقون؛ لأنَّ المسيحي لا يُقال إلاَّ لمن آمن بعيسى بن مريم عليه السلام عبدًا لله ورسولاً له، واتَّبعه وصدَّقه فيما أخبر به، ومن ذلك تبشيره بنبيٍّ يأتي من بعده اسمه أحمد، كما قال الله عزَّ وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6].

أمَّا الَّذين لم يتَّبعوه فليسوا بمسيحيِّين، وإنَّما هم «نصارى» كما سمَّاهم الله عزَّ وجلَّ، وعيسى بن مريم عليه السلام بَريءٌ منهم[3].

■ قوله: «**ابنَ مريم**»: «فنسبه إلى أمِّه لينفي نسبته إلى غيرها، فلا يُنسب إلى الله تعالى أنَّه ابنه ولا إلى أبٍ من البشر، كما زعمت النَّصارى الغالية فيه، ولا كما زعمت اليهود الكافرة به»[4].

وفي هذا فائدتان:

(1) «مدارج السَّالكين» (496/2).

(2) انظر: «تاج العروس» (488/38).

(3) انظر: «فتاوى الشَّيخ ابن باز» (387/5)، «لقاءات الباب المفتوح» (43/السُّؤال رقم 8)، «إعانة المستفيد» (271/1)، «معجم المناهي اللَّفظيَّة» (93).

(4) «الرد على البكري» لشيخ الإسلام ابن تيمية (460/2).

«إحداهما: بَيَانٌ أَنَّهُ مَوْلُودٌ، وَاللَّهُ لَمْ يُولَدْ.

وَالثَّانِيَةُ: نِسْبَتُهُ إلى مَرْيَمَ؛ بِأَنَّهُ ابْنُهَا لَيْسَ هُوَ ابنَ اللَّهِ»[5].

بيَّن الحديث أنَّ النَّصارى هم الَّذين أطروا نبيَّ الله عيسى ابن مريم، وهذا من غلوِّهم فيه وفي دينهم، «وَغُلُوُّ النَّصَارَى فِي عِيسَى قَوْلُ بَعْضِهِمْ هُوَ اللَّهُ، وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ هُوَ ابْنُ اللَّهِ وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ هُوَ ثَالِثُ ثلاثَة»[6]، و«هذه الأقوال جميعها قول طوائف النَّصارى المشهورة: **الملكيَّة**[7] **واليعقوبيَّة والنَّسطوريَّة**؛ فإنَّ هذه الطَّوائف كلَّها تقول بالأقانيم[8] الثَّلاثة: الأب والابن وروح القدس، فتقول: إنَّ الله ثالثُ ثلاثة، وتقول عن المسيح إنَّه الله، وتقول إنَّه ابن الله، وهم متَّفقون على اتِّحاد اللاَّهوت والنَّاسوت[9]، وأنَّ المتَّحد هو الكلمة، وهم متَّفقون على **عقيدة إيمانهم**[10] الَّتي تتضمَّن ذلك وهو قولهم: نؤمن بإله واحدٍ آب ضابط الكلِّ، خالق السَّماوات والأرض، كلِّ ما يرى وما لا يرى وبربٍّ واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كلِّ الدُّهور، نور من نور إله حقّ من إله حقٍّ، مولود غير مخلوق»[11].

وقال الحافظ ابن كثير (479/2): «وكلُّ هذه الفرق تُثْبِتُ الأقانيم الثَّلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفيَّة ذلك، وفي اللاَّهوت والنَّاسوت على زعمهم! هل اتَّحدَا، أو ما اتَّحدَا، بل امتزجَا أو حلَّ فيه؟ على ثلاث مقالات، وكلٌّ منهم يكفِّر الفرقة الأخرى، **ونحن نكفِّر الثَّلاثة**» اهـ.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (477/2): «ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلوِّ والإطراء، وهذا كثير في النَّصارى، فإنَّهم تجاوزوا حدَّ التَّصديق بعيسى، حتَّى رفعوه فوق المنزلة الَّتي أعطاه الله إيَّاها، فنقلوه من حيِّز النُّبوَّة إلى أن اتَّخذوه إلهًا من دون الله يعبدونه كما يعبدونه،... ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾؛ أي: إنَّما هو عبد من عباد الله وخَلْق من خلقه، قال له: كنْ فكان، ورسولٌ من رسله، وكلمته ألقاها إلى مريم، أي: خَلقَه بالكلمة الَّتي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربِّه عزَّ وجلَّ، فكان عيسى بإذن الله عزَّ وجلَّ،... ولهذا قيل لعيسى: إنَّه كلمة الله وروح منه؛ لأنَّه لم يكن له أبٌ تَوَلَّد منه، وإنَّما هو ناشئ عن الكلمة الَّتي قال له بها: «كن» فكان، والرُّوح الَّتي أُرسل بها جبريل...» اهـ.



(5) «مجموع الفتاوى» (449/2).

(6) «مجموع الفتاوى» (274/17 ـ 275). والتثليث أصلٌ في عقيدة النصارى كلّهم، ولكنّهم مختلفون في كيفيته.

(7) ويقال لها أيضا (المَلَكَانِيَّة).

(8) الأقانيم: جمع كلمة «أقنوم»، وقد اختلف النصارى في معناها كثيرا، واضطربوا في تفسيرها فـ«تارة يقولون أشخاص، وتارة خواص، وتارة صفات، وتارة جواهر، وتارة يجعلون الأقنوم اسما للذات والصفة معا، وهذا تفسير حُذَّاقهم، انظر: «الجواب الصحيح» (200/3).

(9) اللاهوت: الجانب الإلهي من طبيعة عيسى عليه السلام عند النصارى.
والناسوت: الجانب الإنساني من عيسى عليه السلام عندهم.

(10) وهو ما يُعرَف بـ«قانون الإيمان» عند النصارى، ويعتبر من لا يؤمن به عندهم ليس مسيحيا!

(11) «الجواب الصَّحيح لمن بدَّل دين المسيح» (12/2).
وهذا الذي نقله شيخ الإسلام لا يخرج عن صيغة القانون المترجمة إلى العربية والمعتمدة في كنائس النصارى اليوم.

قال قتادة: في قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ «هو قوله: **كُنْ فَكَان**»[12].

وقال شاذُّ بنُ يحيى: «ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمةِ صارَ عيسى»[13].

فعيسى عليه السلام **مخلوق من روح مخلوقة** وأضيفت الروح إلى الله على وجه التَّشريف، كما أضيفت النَّاقة والبيت إلى الله، فهي من خلق الله تعالى، ومن عنده، وليست من للتَّبعيض كما تقوله النَّصارى - عليهم لعائن الله المتابعة - بل هي لابتداء الغاية.

وعيسى عليه السلام بريء من هذا الَّذي ادَّعوه فيه وفي أمِّه، فقد جاء في القرآن الكريم ذلك صريحًا واضحًا لا شكَّ فيه ولا ريب، قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [سورة المائدة].

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [سورة المائدة].

■ قوله: «**أنا عبده**»: هذا وصف ملازم له غير زائل عنه ﷺ؛ لأنَّ منزلة العبوديَّة هي أساس الشَّرف للرُّسل والمؤمنين؛ ولهذا يذكر الله تعالى نبيَّه بوصف العبوديَّة في أعلى المقامات، فقال سبحانه وتعالى في مقام الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [سورة الإسراء]، وقال في مقام التَّحدِّي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: 23]، وقال تعالى في مقام الدَّعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [سورة الجن]، وقال سبحانه وتعالى في مقام الإنذار: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [سورة الفرقان].

(12) أثر صحيح، أخرجه عبد الرَّزَّاق في «تفسيره» (658).

(13) أثر صحيح، أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (6310).

■ قوله: «**فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»: أي: صفوني بذلك كما وَصَفني ربِّي.

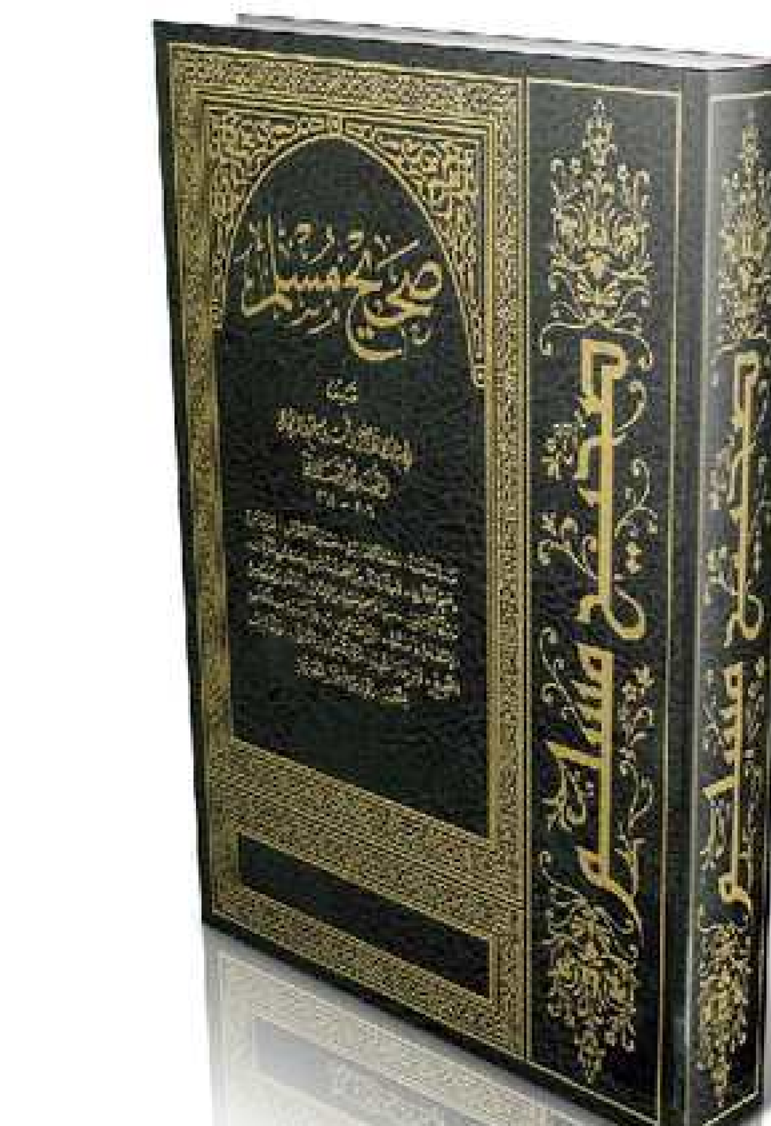
قال الإمامُ ابنُ القيِّم في «مدارج السَّالكين» (440/3): «وأمَّا سيِّد ولد آدم - صلوات الله وسلامه عليه - فإنَّه كمل مرتبة العبوديَّة فاستحقَّ التَّقديم على سائر الخلائق فكان صاحب الوسيلة والشَّفاعة الَّتي يتأخَّر عنها جميع الرُّسل ويقول هو: أنا لها، ولهذا ذكره الله - سبحانه وتعالى - بالعبودية في أعلى مقاماته وأشرف أحواله... ولهذا يقول المسيح حين يُرغب إليه في الشَّفاعة: «**اذْهَبُوا إلى مُحَمَّد، عَبْدٌ غُفرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه وَمَا تَأَخَّرَ**»[14] فاستحقَّ تلك الرُّتبة العليا بتكميل عبوديَّته لله وبكمال مغفرة الله له» اهـ.

وقال ابنُ أبي العزِّ الحنفي في «شرحه على العقيدة الطَّحاوية» (149/1): «وَاعْلَمْ أَنَّ كَمَالَ المَخْلُوقِ في تَحْقِيقِ عُبُودِيَّته لله تَعَالَى، وَكُلَّمَا ازْدَادَ العَبْدُ تَحْقِيقًا لِلعُبُودِيَّة ازْدَادَ كَمَالُهُ وَعَلَتْ دَرَجَتُهُ **وَمَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ المَخْلُوقَ يَخْرُجُ عَنِ العُبُودِيَّة بِوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ، وَأَنَّ الخُرُوجَ عَنْهَا أَكْمَلُ، فَهُوَ مِنْ أَجْهَلِ الخَلْقِ وَأَضَلِّهِمْ**...» اهـ.

فـ«**عبد الله**» تُبطل الغلوَّ، «**ورسوله**»: تُبطلُ الجفاءَ، فلا يُغالَى في النَّبيِّ ﷺ فيُعبَد من دون الله، أو يعطى من خصائص الرُّبوبيَّة أو الألوهيَّة، ولا يُجفَى فيُكَذَّب ولا يُمتَثل أمرُه ولا تُتَّبَع سنته، والحقُّ وسط بين الغلوِّ والجفاء، وهو صراطُ الله المستقيم، ودينُه القويم، طريقُ النَّجاة الوحيد الموصل إلى اللهِ العزيزِ الحميد.

(14) ما وجدته بهذا اللَّفظ، وإن كان أصله في «الصَّحيحين»، فقد رواه البخاري (4712) ومسلم (194).





إشكال وجوابه:

فإن قال قائل:

ما علمنا أنَّ أحدًا ادَّعى في رسولِ الله ﷺ ما ادُّعِيَ في عيسى عليه السلام؟!

فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأوَّل: أنَّ هذا فيه «سدٌّ للذَّرائع الَّتي تؤدِّي إلى الشِّرك بالله، فالرَّسول ﷺ ما من خيرٍ إلاَّ دلَّ الأمَّة عليه، وما من شرٍّ إلاَّ حذَّرها منه، وكلَّما كان الشَّيء أخطر كانت العناية به أعظم، فالشِّرك لمَّا كان أعظم الذُّنوب وأظلم الظُّلم على الإطلاق، وهو الذَّنب الَّذي لا يغفره الله والَّذي حرَّم الله على صاحبه الجنَّة ومأواه النَّار، لمَّا كان بهذه الخطورة حذَّر منه ﷺ غاية التَّحذير ومنع من أيِّ وسيلة تؤدِّي إليه، كما منع من إطرائه في هذا الحديث لئلاَّ يفضي ذلك إلى أعظم محذور، وكما لعن ﷺ اليهود والنَّصارى في اتِّخاذهم قبور أنبيائهم مساجد وهو في شدَّة المرض الَّذي مات فيه، كلُّ ذلك حماية منه ﷺ لجناب التَّوحيد وسدًّا للطُّرق الَّتي تنتهي إلى الشِّرك»[15].

الثَّاني: أنَّ من الصَّحابة من بالغ في تعظيمه، فنهاهم النَّبيُّ ﷺ عمَّا عساه يبلغ بهم العبادةَ باستهواء الشَّيطان واستجرائه.

فعن أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا سَيِّدَنَا، وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَيَا خَيْرَنَا، وَابْنَ خَيْرِنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلاَ يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ[16] الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَرَسُولُ اللهِ، وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَا رَفَعَنِي اللهُ»**[17]، وفي لفظ[18]: **«فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ»**.

وعَن ابْنِ عَبَّاس، أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ! فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **«أَجَعَلْتَنِي وَاللهِ عَدْلاً! بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»**[19].

الثَّالث: «أنَّه ليس من شرط النَّهي أن يكون المنهيّ عنه قد فُعِل، وإنَّما هو منع من أمرٍ يجوز أن يقع»[20].

«وهذا يقتضي أنَّ مَنْ رفع امرأً فوق حدِّه وتجاوز مقداره بما ليس فيه فمعتدٍ آثم؛ لأنَّ ذلك لو جاز في أحدٍ لكان أولى الخلق بذلك رسول الله ﷺ» اهـ[21].

● إنَّ الغلوَّ في الدِّين غيرُ مرضيٍّ في الإسلام، وشريعةِ نبيِّنا محمَّد ﷺ خيرِ الأنام، وقد نهى عنه اللهُ ورسولُه ﷺ، ومع وجود النُّصوص الكثيرة والمتنوِّعة في مختلف أبواب الشَّريعة، المحذِّرة والمنفِّرة من الغلوِّ بشتى أشكاله ـ سواء في الاعتقادات، أو في الأعمال[22] ـ، فقد آلَ إليه ـ مع الأسف الشَّديد ـ طوائفُ من أمَّةِ النَّبيِّ ﷺ على مرِّ الدُّهور والعصور، وهو باقٍ إلى يوم النَّاس هذا، يعلمُ ذلك كلُّ مَن اطَّلع على ما أُحدث في الأمَّة من عقائد، وطرائق ومناهج مخالفة للدِّين، ومجانبة لشريعة ربِّ العالمين.

وسأمثِّل **بطائفتين ضالَّتَيْن وهما: الرَّافضة والمتصوِّفة من أصحاب الطُّرق**، لما لَهما من نشاطٍ رهيب، ومَدٍّ زاحفٍ مريب، ومددٍ ودعمٍ وتأييدٍ من قوى الكفر من اليهود والنَّصارى عجيب!

ـ يزعمُ الرَّافضة «أنَّ أئمَّتهم يعلمون الغيب، وأنَّهم يحيون الموتى، وأنَّهم قادرون على إبراء الأكمه والأبرص، وأنَّ كلَّ ما جاء من صفاته تعالى فإنَّ المراد بها أئمَّتهم، كوجه الله، ويده، ولسانه، وبابه، وأنَّهم الأسماء الحسنى، كما زعموا أنَّ أئمَّتهم أفضل من الأنبياء، كما عبدوهم من دون الله تعالى، وجعلوا أضرحتهم مزاراتٍ وأعيادًا، وصيَّروها أوثانًا»[23].

(15) مجموع كتب ورسائل الشَّيخ العلاَّمة عبد المحسن العبَّاد البدر ـ حفظه الله ـ (2/215، 216).

(16) أي: يذهب بعقولكم وهواكم.

(17) حديث صحيح. أخرجه أحمد (13529)، انظر: «الصحيحة» (1097).

(18) المسند (13596) وإسنادُها صحيح.

(19) حديث صحيح لغيره. أخرجه أحمد (1839)، وابن ماجه (2117). انظر: «الصحيحة» (138).

(20) انظر: «كشف المشكل من حديث الصَّحيحين» لابن الجوزي (1/65).

(21) «تفسير القرطبي» (5/247).

(22) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (1/288).

(23) شرح يوسف بن محمد السعيد لـ«المسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهلَ الجاهلية» (1/251).

- يزعم غلاةُ الصُّوفيَّة أنَّ الله خلق الكون مِن نورِ نبيِّنا محمَّد ﷺ[24].

- أنَّ الكون خلق من اسمه ﷺ وحضوره وقربه من ربِّه[25].

- زعمهم أنَّ بنور نبيِّنا محمَّد ﷺ تجري الأنهار وتثمر النَّباتات وتظهر أسرار الأرض[26]!

- زعمهم أنَّ الرَّسول ﷺ ليس من البشر، بل هو بالرُّوح القدسي والقالب النَّبوي[27]!

- زعمهم أنَّ الرَّسول ﷺ لم يمت، ولكنَّه حيٌّ مخلَّد، قد تستَّرَ عمَّن لا يفقه عن الله[28]!

- زعمهم أنَّ الرَّسول ﷺ يعلم الغيب[29].

وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في معرض ردِّه على النَّصارى في كتابه الفذِّ **«الجواب الصَّحيح لمن بدَّل دين المسيح»** مضاهاةَ قول غلاة الصُّوفيَّة المنتسبين إلى الإسلام وغيرهم قول النَّصارى في عيسى عليه السلام، إذ قالوا في النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ ذات النَّبيِّ كانت موجودة قبل خلق آدم، ويقولون إنَّه خُلق مِنْ نور ربِّ العالمين ووجد قبل خلق آدم وأنَّ الأشياء خلقت منه حتَّى قد يقولون في محمَّد ﷺ من جنس قول النَّصارى في المسيح حتَّى قد يجعلون مدد العالم منه **ويروون في ذلك أحاديث وكلُّها كذب**»[30].

- غلوُّ الضُّلَّال في النَّبيِّ ﷺ، وإطراؤهم له فوق الحدِّ المشروع، فأبوا إلاَّ مخالفة أمره وارتكاب نهيه، وناقضوه أعظم المناقضة فغلوا فيه وبالغوا في إطرائه وادَّعوْا فيه ما ادَّعت النَّصارى في عيسى أو قريبًا منه، **فسألوه مغفرة الذُّنوب وتفريج الكروب وشفاء الأمراض ونحو ذلك ممَّا هو مختصٌّ بالله وحده لا شريك له، وكلُّ ذلك من الغلوِّ في الدِّين.**

وصور الغلو في الدِّين كثيرة متنوِّعة، نصَّ عليها العلماء، وبيَّنوها نصحًا للأمَّة، وتحذيرًا منها، وذبًّا عن دين ربِّ العالمين، ومؤلَّفاتُ أئمَّة السُّنَّة المسندة وغيرها، زاخرة بالتَّحذير من الغلوِّ وأهله ـ بمختلف أنواعه وصوره وأشكاله القديمة والحديثة.

● **مدح الرَّسول ﷺ منه ما هو محمود ومنه ما هو مذموم:**

«**فالمحمود:** هو أن يوصف بكلِّ كمال يليق بالإنسان،... **والمدح المذموم:** هو الَّذي يتجاوز فيه الحدُّ ويقع به المادح في المحذور الَّذي لا يرضاه الله ولا رسوله ﷺ، وذلك: **أن يوصف ﷺ بما لا يجوز أن يوصف به إلاَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ أو أن يصرف له ﷺ ما لا يستحقُّه إلاَّ الباري جلَّ وعلا...**»[31].

● **فوائد الحديث وما يستنبط منه:**

- إظهار سنَّة رسول الله ﷺ ونشرها.
- كمال نصح وبلاغ الرَّسول ﷺ لأمَّته.
- سدُّ الذَّرائع الَّتي تؤدِّي إلى الشِّرك.
- بيان ما وقع فيه النَّصارى من الغلوِّ في عيسى عليه السلام.
- تحذير الأمَّة من الوقوع فيما وقعت فيه النَّصارى.
- الجمع بين الأمر والنَّهي، وأنَّ على المفتي إذا أرشد إلى المنع من محذور أن يدلَّ على مأمور به هو خير.
- وصفه ﷺ بأنَّه عبد الله ورسوله امتثالاً لأمره ﷺ.
- الإشارة في الجمع بين وصفه بكونه عبد الله ووصفه بكونه رسوله إلى دفع الإفراط والتَّفريط، والغلو والجفاء.
- بيان أنَّه ﷺ لا يخرج عن أن يكون عبدًا لله تعالى حيث قال: **«إنَّما أنا عبده»**.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدِّين.

❀❀❀

(24) كلامهم هذا ثابت عنهم في مصادرهم ومراجعهم، انظر: «الابريز من كلام عبد العزيز الدبّاغ» (ص: 224 ـ 225).
(25) «الابريز» (ص: 224 ـ 225).
(26) «الابريز» (ص: 222).
(27) قاله أبو المواهب الشاذلي كما في «الطبقات الكبرى للشعراني» (ص: 588).
(28) قاله ـ أيضا ـ أبو المواهب الشاذلي كما في «الطبقات الكبرى للشعراني» (ص: 591)، وانظر: «جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض التيجاني» (118/1).
(29) «الابريز» (ص: 246 ـ 249). وانظر رد العلماء على البوصيري في بيته المشهور: ومن علومك علم اللوح والقلم!
(30) «الجواب الصحيح» (384/3).
(31) مجموع كتب ورسائل الشَّيخ عبد المحسن العبَّاد البدر (216/2 ـ 217) بتصرّف.

فهوم خاطئة في موالاة الكفار

عبد المالك رمضاني

مَوضوعُ مُوالاة الكفَّار هو أحدُ المَباحث العظام الَّتي افتتَن بها جَماعاتُ التَّكفير اليَومَ، إذ يـرَونَ أنَّ مَـن والَى الكفَّارَ بـأيِّ نَـوع مـن أنـواع الموالاة الظَّاهرة أو الباطنة يَكفرُ كفرًا يُخرجُه من ملَّة الإسلام، حتَّى ربَّما جَعلوا من ذلكَ العلاقات الدِّبلوماسيَّة بين بلد مُسلم وآخرَ كافر، أو جعَلوه في صورة تَبـادل ثـقـافيٍّ بينَـهـمـا، أو في التَّفاوض مع اليَهود في القضيَّة الفلَسطينيَّة، أو في استقدام عَساكر كافرة لصدِّ عُدوان مُعتد شرس، أو في اتِّخاذَ جَواز سفر لكلِّ دَولـة مُسلمة على حدة؛ لأنَّه عندَهم دَليلٌ على أنَّ الولاءَ أصبحَ عُنصريًّا لاَ دينيًّا، أو في بيع النَّفط للدُّوَل الكافرة برُخص؛ لأنَّـه عنـدَهم دَليلٌ على عدَم الاكـتـراث بـثـروات المُسلمين ولو كانوا يَهتمُّون باقتصاد إخوانهم المُسلمين لما أرخَصوا الأسعارَ، إلى غير ذلكَ من الأمثلة الكَثيرة في هَذا الباب، ممَّا لاَ يُفرِّقون فيه بينَ مُوالاة ظاهرة تدلُّ على التَّأثيم أو عدمه، ومُوالاة باطنة تدلُّ على التَّكفير.



وقد أمرَ الله بموالاة المُسلمين فقالَ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة : 55].

ونهَى عن مُوالاة الكفَّار فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة : 51]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة]، ونهى عن ذلكَ ولو مع الآباء والإخوان فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة]، وعلَّلَ ذلكَ بقوله:

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة].

لقد اتَّخذَ جَماعاتُ التَّكفيرِ من هَذه الآياتِ الكَريماتِ وغيرِها تُكأةً لتَكفيرِ المُسلمين من غيرِ تَفصيلٍ بزَعمِ موالاةِ الكفَّار، وممَّا يدلُّ على عدَمِ إنصافِهم في الأحكامِ أنَّهم خصُّوا إنزالَها على الحكَّامِ فقَطْ عند أكثرِ المُبتلين بهذا الفكر مع أنَّ لفظها عامٌّ وأقوالُ عُلماءِ التَّفسيرِ تأبى عليهم ذلكَ كلَّه، والتَّطبيقاتُ النَّبويَّةُ تَنأى بهم عن هذا المسلكِ الوَعرِ!

أمَّا التَّفاسيرُ؛ فمنها قولُ ابن الجوزي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51] فيه قولان:

أحدهما: من يتولهم في الدِّين؛ فإنَّه منهم في الكفر.

والثَّاني: من يتولَّهم في العهد؛ فإنَّه منهم في مخالفة الأمر» [«زاد المسير» (2/378)].

وقول أبي السُّعود رحمه الله في تفسير الآية: «فيه زجرٌ شديد للمؤمنين عن إظهار صورة الموالاة لهم وإن لم تكن موالاةً في الحقيقة» [«إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (3/48)].

وقول الشَّيخ محمَّد الأَمين الشَّنقيطي رحمه الله: «ذكر في هذه الآية الكريمة أنَّ من تولَّى اليهود والنَّصارى من المسلمين؛ فإنَّه يكون منهم بتولِّيه إياهم.

وبيَّن في موضع آخر أنَّ تولِّيهم موجب لسخط الله والخلود في عذابه، وأنَّ متولِّيهم لو كان مؤمنًا ما تولَّاهم، وهو قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (80) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (81)﴾ [المائدة].

ونهى في موضع آخر عن تولِّيهم مبيِّنًا سبب التَّنفير منه، وهو قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (13)﴾ [الممتحنة].

وبيَّن في موضع آخر أنَّ محلَّ ذلك فيما إذا لم تكن الموالاة بسبب خوف وتقيَّة، وإن كانت بسبب ذلك فصاحبها معذور، وهو قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: 28]، فهذه الآية الكريمة فيها بيان لكلِّ الآيات القاضية بمنع موالاة الكفَّار مطلقًا وإيضاح؛ لأنَّ محلَّ ذلك في حالة الاختيار، وأمَّا عند الخوف والتَّقيَّة فيرخص في موالاتهم، بقدر المداراة الَّتي يكتفي بها شرَّهم، ويشترط في ذلك سلامة الباطن من تلك الموالاة.

ومن يأتي الأمور على اضطرار

فليس كمثل آتيها اختيارا

ويفهم من ظواهر هذه الآيات أنَّ من تولى الكفَّار عمدًا اختيارًا، رغبة فيهم أنَّه كافر مثلهم» [«أضواء البيان» (2/111)].

وقول ابن كثير رحمه الله: «وقوله: ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: 28]، أي: إلاَّ من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرِّهم، فله أن يتَّقيهم بظاهره لا بباطنه ونيَّته، كما حكاه البخاري عن أبي الدَّرداء أنَّه قال: إنَّا لنكْشرُ في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم» [«تفسير القرآن العظيم» (2/30)].

وغير ذلك من كتبِ التَّفسير، والضَّابطُ في ذلك أنَّ مَن تولَّى الكفَّارَ لدينهم فهو كافرٌ؛ لأنَّ ذلك تولٍّ باطنيٌّ، وهو كاف للحُكم عليه بالكفر ولو لم يتولَّهم ظاهرًا؛ فإنَّ المُنافقين كانُوا في الظَّاهر يتولَّون المسلمين لكنَّهم في السِّرِّ مع الكفَّار يتمنَّون انتصارهم ويُحبُّون ظُهور دينهم ويرتاحُون إلى معاشرتهم أكثرَ من ارتياحهم إلى مُعاشرة المسلمين وإذا وجدوا فُرصةً لنصرهم لم يُقصِّروا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (11)﴾ [الحشر]، ومَن تولَّاهم احتياجًا إلى بعض ما في أيديهم من الدُّنيا أو خوفًا ممَّا لهم من قوَّة، أو حميَّةً لهم بدافع العنصريَّة مثلاً فهو دائرٌ بين التَّأثيم والإعذار، أمَّا التَّكفيرُ فلا كما مرَّ في تفسير الآيةِ وما سيأتي الآن من شواهد في السُّنَّة.

والضَّابطُ في ذلك أنَّ مَن تولَّى الكفَّارَ لدينهم فهو كافرٌ؛ لأنَّ ذلك تولٌّ باطنيٌّ، وهو كاف للحُكم عليه بالكُفر ولو لم يتولَّهم ظاهرًا... ومَن تولَّاهم احتياجًا إلى بعض ما في أيديهم من الدُّنيا أو خوفًا ممَّا لهم من قوَّة، أو حميَّةً لهم بدافع العنصريَّة مثلاً فهو دائرٌ بين التَّأثيم والإعذار، أمَّا التَّكفيرُ فلا...

عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزُّبيرَ والمقدادَ فقال: «**انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوا مِنْهَا**»؛ قال: فانطلقنا تَعادى بِنا خيلُنا حتَّى أتينا الرَّوضة فإذا نحن بالظَّعينة قلنا لها: أخرجي الكتاب؟ قالت: ما معي كتابٌ؛ فقلنا: لتُخرِجنَّ الكتاب أو لنُلقينَّ الثِّياب؛ قال: فأخرجته من عِقاصِها؛ فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: مِن حاطب بن أبي بلتعة إلى ناسٍ بمكَّة من المشركين، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ؛ فقال رسول الله ﷺ: «**يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟!**»؛ قال: يا رسول الله! لا تعجل عليَّ، إنِّي كنتُ امرأً مُلصقًا في قُريشٍ - يقول: كنتُ حليفًا ولم أكن من أنفسها - وكان مَن معك من المهاجرين مَن لهم قراباتٌ يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببتُ إذ فاتني ذلك من النَّسب فيهم أن أتَّخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام؛ فقال رسول الله ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ**».

فقال عمر: يا رسول الله! دعني أضربْ عنق هذا المنافق؛ فقال: «**إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا قَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**» فأنزل الله السُّورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: 1]» متَّفق عليه.

في هذه القصَّة يظهر جليًّا أنَّ حاطبًا رضي الله عنه تجسَّس على المسلمين للمشركين، ومع ذلك فلم يكفِّره رسول الله ﷺ، ولو كان ما فعله كفرًا محضًا ما أخبر رسول الله ﷺ بأنَّه من المغفور لهم؛ لأنَّ الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: 48].

ففي كتاب «الأمّ» للشَّافعي (263/4): «المسلم يدلُّ المشركين على عورة المسلمين، قيل للشَّافعي: أرأيت المسلم يكتب إلى المشركين من أهل الحرب بأنَّ المسلمين يريدون غزوهم أو بالعورة من عوراتهم هل يحلُّ ذلك دمَه ويكون في ذلك دلالة على ممالاة المشركين؟ قال الشَّافعي رحمه الله: لا يحلُّ دم من ثبتت له حرمة الإسلام إلاَّ أن يقتل أو يزني بعد إحصان أو يكفر كفرًا بيِّنًا بعد إيمان ثمَّ يثبت على الكفر، وليس الدِّلالة على عورة مسلم ولا تأييد كافر بأن يحذر أنَّ المسلمين يريدون منه غرَّة ليحذرها أو يتقدَّم في نكاية المسلمين بكفر بيِّن، فقلت للشَّافعي: أقلت هذا خبرًا أم قياسًا؟ قال: قلته بما لا يسع مسلمًا علمه عندي أن يخالفه بالسُّنَّة المنصوصة بعد الاستدلال بالكتاب، فقيل للشَّافعي: فاذكُر السُّنَّة فيه»، فاستدلَّ بقصَّة حاطبٍ وساقها، ثمَّ قال رحمه الله: «في هذا الحديث مع ما وصفنا لك طرح الحكم باستعمال الظُّنون؛ لأنَّه لمَّا كان الكتاب يحتمل أن يكون ما قال حاطب كما قال من أنَّه لم يفعله شاكًّا في الإسلام وأنَّه فعله ليمنع أهله.

ويحتمل أن يكون زلَّةً لا رغبةً عن الإسلام واحتمل المعنى الأقبح كان القول قولَه فيما احتمل فعله، وحكم رسول الله ﷺ فيه بأن لم يقتله ولم يستعمل عليه الأغلب، ولا أحد أتى في مثل هذا أعظم في الظَّاهر من هذا؛ لأنَّ أمر رسول الله ﷺ مباينٌ في عظمته لجميع الآدميِّين بعده، فإذا كان من خابر المشركين بأمر رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ يريد غرَّتهم فصدَّقه، ما عاب عليه الأغلب ممَّا يقع في النُّفوس، فيكون لذلك مقبولاً كان مَن بعدَه في أقلّ من حاله وأولى أن يقبل منه مثل ما قُبِلَ منه».

وقال أبو بكر بن العربي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: 1] يعني في الظَّاهر؛ لأنَّ قلب حاطبٍ كان سليمًا بالتَّوحيد بدليل أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لهم: «**أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ صَدَقَ**»، وهذا نصٌّ في سلامة فؤاده وخلوص اعتقاده»، ثمَّ قال: «مَن كثر تطلُّعه على عورات المسلمين، وينبِّه عليهم، ويعرِّف عدوَّهم بأخبارهم لم يكن بذلك كافرًا إذا كان فعلُه لغرضٍ دنيويٍّ، واعتقاده على ذلك سليم، كما فعل حاطبُ بنُ أبي بلتعة حين قصد بذلك اتِّخاذَ اليد ولم ينو الرِّدَّة عن الدِّين» [«أحكام القرآن» (1783/4)].

في هذه القصَّة يظهر جليًّا أنَّ حاطبًا رضي الله عنه تجسَّس على المسلمين للمشركين، ومع ذلك فلم يكفِّره رسول الله ﷺ، ولو كان ما فعله كفرًا محضًا ما أخبر رسول الله ﷺ بأنَّه من المغفور لهم

وفي حديث الإفك تكلَّم رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ ابن سلول في عرض رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلاَّ خَيْرًا وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلاَّ خَيْرًا وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلاَّ مَعِي**»، فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله! أنا والله أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك؛ فقام سعد بن عبادة ـ وهو سيِّد الخزرج ـ وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا ولكن احتملته الحميَّة فقال: كذبتَ لَعَمرُ الله، لا تقتله ولا تقدر على ذلك؛ فقام أسيد بن حضير فقال: كذبتَ لَعَمرُ اللَّه، واللَّه لنقتُلَنَّه، فإنَّك منافقٌ تجادل عن المنافقين...» رواه البخاري ومسلم.

وعن عتبان بن مالك الأنصاري رضي الله عنه ـ وكان ممَّن شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ ـ يقول: كنتُ أصلِّي لقومي ببني سالم، وكان يحول بيني وبينهم وادٍ إذا جاءت الأمطار، فيشقُّ عليَّ اجتيازه قِبَلَ مسجدهم، فجئت رسولَ الله ﷺ فقلتُ له: إنِّي أنكرتُ بصري، وإنَّ الواديَ الَّذي بيني وبين قومي يسيل إذا جاءت الأمطار فيشقُّ عليَّ اجتيازه، فوددت أنَّك تأتي فتُصَلِّي من بيتي مكانًا أتَّخذه مصلًّى؛ فقال رسول الله ﷺ: «**سَأَفْعَلُ**»؛ فغدا عليَّ رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه بعد ما اشتدَّ النَّهار فاستأذن رسول الله ﷺ فأذنت له فلم يجلس حتَّى قال «**أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ**»؛ فأشرتُ له إلى المكان الَّذي أحبُّ أن أصلِّي فيه؛ فقام رسول الله ﷺ فكبَّر وصففْنا وراءه فصلَّى ركعتين ثمَّ سلَّم وسلَّمنا حين سلَّم فحبسته على خَزِيرٍ يُصْنَعُ له فسمع أهلُ الدَّار رسول الله ﷺ في بيتي فثاب رجالٌ منهم حتَّى كَثُرَ الرِّجال في البيت؛ فقال رجل منهم: ما فعل مالك لا أراه؟ فقال رجل منهم: ذاك منافقٌ لا يحبُّ الله ورسوله؛ فقال رسول الله ﷺ: «**لاَ تَقُلْ ذَاكَ أَلاَ تَرَاهُ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»؛ فقال: الله ورسوله أعْلَمُ، أمَّا نحن فوالله لا نرى ودَّه ولا حديثه إلاَّ إلى المنافقين؛ قال رسول الله ﷺ: «**فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**» أخرجَه البخاري ومسلم.

فهذا رجلٌ شُهِدَ عليه بموادَّته المنافقين لكنَّ الرَّسول ﷺ لم يكفِّره، وهو دالٌّ على ضرورة الاحتياط في الحكم على من ظاهرُ فعلِه يدلُّ على تولِّي الكفَّار والمنافقين.

وقد ذكر ابنُ تيمية رحمه الله هذه الشَّواهدَ الحديثيَّة كلَّها واستنبط منها ما نحن بصدده، فقال: «شعب الإيمان قد تتلازم عند القوَّة ولا تتلازم عند الضَّعف فإذا قوي ما في القلب من التَّصديق والمعرفة والمحبَّة للَّه ورسوله أوجب بغضَ أعداء اللَّه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: 81]، وقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: 22]، وقد تحصل للرَّجل موادَّتهم لرحم أو حاجة فتكون ذنبًا ينقص به إيمانُهُ ولا يكون به كافرًا كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة لمَّا كاتب المشركين ببعض أخبار النَّبيِّ ﷺ وأنزل اللَّه فيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: 1]، وكما حصل لسعد بن عبادة لمَّا انتصر لابن أبي في قصَّة الإفك، فقال لسعد بن معاذ: كذبت واللَّه، لا تقتله ولا تقدر على قتله؛ قالت عائشة: وكان قبل ذلك رجلا صالحًا ولكن احتملته الحميَّة.

ولهذه الشُّبهة سمَّى عمرُ حاطبًا منافقًا فقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال: «**إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا**» فكان عمر متأوِّلاً في تسميته منافقًا للشُّبهة الَّتي فعلها، وكذلك قولُ أسيد ابن حضير لسعد بن عبادة: كذبت لعمر اللَّه لنقتلَنَّهُ؛ إنَّما أنت منافق تجادل عن المنافقين؛ هو من هذا الباب، وكذلك قولُ من قال من الصَّحابة عن مالك بن الدخشم: منافق وإن كان قال ذلك لما رأى فيه من نوع معاشرةٍ ومودَّةٍ للمنافقين» «مجموع الفتاوى» (522/7).

هذه وقائعُ تعتبرُ تفسيرًا لمَا أُجمِل من آياتِ القُرآن في مسألة موالاة الكفَّار، لو أخذَ بها المتسرِّعون في التَّكفير بها لمَا وقعُوا في العدوان على حرماتِ غيرِهم.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

د.رضا بوشامة
أستاذ الحديث بجامعة قسنطينة

عن النُّعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَثَلُ القَائِم عَلَى حُدُودِ الله وَالوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوم اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَة فَأَصَابَ بَعضُهُم أَعْلاَهَا وَبعضُهُم أَسفلَهَا، فَكَانَ الَّذينَ فِي أَسفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَن فَوْقَهُم؛ فَقَالُوا: لَو أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقاً وَلَم نُؤذِ مَن فَوقَنَا؛ فَإِن يَترُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِن أَخَذُوا عَلَى أَيدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا**»[1].

■ ■ ■

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ!**» فقالوا: ما لنا بُدٌّ! إنَّما هي مجالسنا نتحدَّث فيها؛ قال: «**فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ المَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا**»؛ قالوا: وما حقُّ الطَّريق؟ قال: «**غَضُّ البَصَرِ وَكَفُّ الأَذَى وَرَدُّ السَّلاَمِ وَأَمرٌ بِالمَعرُوفِ وَنَهيٌ عَنِ المُنكَرِ**»[2].

■ ■ ■

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ رَأَى مِنكُمْ مُنْكَرًا فَليُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِن لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِن لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلبِهِ، وَذَلِكَ أَضعَفُ الإِيمَانِ**»[3].

■ ■ ■

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**وَالَّذي نَفسِي بِيَدِهِ! لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يُستَجَابُ لَكُمْ**»[4].

■ ■ ■

وعن زينب بنت جَحش رضي الله عنها أنَّ النَّبيَّ ﷺ دخل عليها فَزِعًا يقول: «**لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَيْلٌ لِلعَرَبِ مِنْ شَرٍّ اقْتَرَبَ! فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثلُ هَذِهِ؛ وحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا**، قالت زينب ابنة جحش: فقلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصَّالحون؟! قال: «**نَعَمْ! إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ**»[5].

■ ■ ■

وعن تميم بن أوس الدَّاريِّ رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قلنا: لمن؟ قال: «**لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[6].

وعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: «بايعتُ رسول الله ﷺ على إقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة والنُّصح لكلِّ مسلم»[7].

(1) أخرجه البخاري في «صحيحه» (2493)، وأحمد في «مسنده» (18361).
(2) أخرجه البخاري في «صحيحه» (2465)، ومسلم في «صحيحه» (2121)، وأحمد في «المسند» (11309).
(3) أخرجه مسلم في «صحيحه» (49)، وأحمد في «المسند» (11073).
(4) أخرجه التِّرمذي في «جامعه» (2169)، وقال: «هذا حديث حسن».
(5) أخرجه البخاري في «صحيحه» (3346)، ومسلم في «صحيحه» (2880).
(6) أخرجه مسلم في «صحيحه» (55)، وأحمد في «المسند» (16942).
(7) أخرجه البخاري في «صحيحه» (57)، ومسلم في «صحيحه» (56)، وأحمد في «المسند» (19163).

هذه الأحاديث المتقدِّمة تدلُّ على أمرٍ خطير وعظيم من أمور الدِّين الحنيف، وهو الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، الَّذي جاء ذكرُه في القرآن الكريم في مواضع عدَّة، بل هو وظيفة الأنبياء عليهم السَّلام، وعليه قامت رسالاتهم، فما من نبيٍّ إلاَّ دعا قومه، وأمرهم بخير ما يعلمه لهم، ونهاهم عن شرِّ ما يعلمه لهم، وقد وصف الله تعالى نبيَّنا محمَّدًا ﷺ بأنَّه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف]، ووصف أمَّته بذلك أيضًا فقال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: 71]، وقال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: 110].

فالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر هو جماع الدِّين، وهو الَّذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبَه.

■ ■ ■

وفي هذا المبحث نتناول بعض القضايا المتعلِّقة بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ونبيِّن من خلال الأحاديث الواردة بعض جوانب ومعالم هذا الأمر العظيم:

- ماهيَّة المعروف والمنكر.
- حكم الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.
- شروط الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.
- آداب الآمر بالمعروف والنَّاهي عن المنكر.
- ثمار الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.
- عواقب ترك الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.
- الفوائد المستنبطة من أحاديث الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

ماهيَّة المعروف والمنكر

المعروف مأخوذ من مادَّة «عرف».

قال ابن فارس: «العين والرَّاء والفاء أصلان صحيحان، يدلُّ أحدُهما على تتابُع الشَّيء متَّصلاً بعضُه ببعض، والآخر على السُّكون والطُّمَأنينة.

فالأوَّل العُرْف: عُرْف الفَرَس، وسمِّي بذلك لتتابُع الشَّعر عليه...

والأصل الآخر: المعرِفة والعِرفان، تقول: عَرَف فلانٌ فلانًا عِرفانًا ومَعرِفة، وهذا أمر معروف، وهذا يدلُّ على ما قلناه من سُكونه إليه؛ لأنَّ مَن أنكر شيئًا توحَّش منه ونَبَا عنْه...

والعُرْف: المعروف، وسمِّي بذلك؛ لأنَّ النُّفوس تسكُن إليه، قال النَّابغة:

أَبـى اللهُ إلاَّ عـدلَه ووفـاءَه
فلا النُّكْرُ معروفٌ ولا العُرْف ضائعُ»[8].

وأمَّا المعروف شرعًا: فـ«هو اسم جامع لكلِّ ما عُرف من طاعة الله والتَّقرُّب إليه والإحسان إلى النَّاس، وكلِّ ما ندب إليه الشَّرع أو نهى عنه من المحسِّنات والمقبِّحات»[9].

أو يُقال: هو ما عُرف في الشَّرع أنَّه ليس بمعصية.

فيدخل فيه الاعتقاد بوحدانية الله والإيمان به وبرسله وكتبه واليوم الآخر والقدر.

والعبادات الظَّاهرة من الصَّلاة والصِّيام والحجِّ والجهاد وغيرها.

والأخلاق الفاضلة كالعدل والصِّدق وغير ذلك.

والأعمال الباطنة كحبِّ الله ورسوله وخشية الله، والتَّوكُّل عليه وغير ذلك.

والمنكر: لغة ضدُّ المعروف.

قال ابن فارس: «النُّون والكاف والرَّاء أصلٌ صحيح يدلُّ على خلاف المعرفة الَّتي يَسكُن إليها القَلب، ونَكِرَ الشَّيءَ وأنكَره: لم يَقْبَلْه قلبُه ولم يعترفْ به لسانُه، قال:

(8) «معجم مقاييس اللُّغة» (281/4).
(9) «النِّهاية في غريب الحديث والأثر» (216/3).

وأنكرَتْني وما كانَ الَّذي نَكِرَتْ
مِنَ الحوادث إلاَّ الشَّيبَ والصَّلَعا»[10].

وشرعًا: «هو ضدُّ المعروف، وكلُّ ما قبَّحه الشَّرع وحرَّمه وكرهه فهو منكر»[11].

أو يُقال: هو ما عُرف في الشَّرع أنَّه معصية.

فيدخل فيه الشِّرك بالله وهو أصل ورأس المنكر، والكفر بالرُّسل والكتب وغير ذلك.

وكذلك ترك الطَّاعات والعبادات كالصَّلاة والزَّكاة والصِّيام.

وفعل ما ينافي الأخلاق الفاضلة كالكذب والسَّرقة وشرب الخمر وغير ذلك من الفواحش والآثام.

لذلك جاءت آثار عن السَّلف في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الحج] أنَّ أَمْرَهم بالمعروف أنَّهم دعوا إلى الله وحده لا شريك له، ونهيهم عن المنكر أنَّهم نهوا عن عبادة الشَّيطان والأوثان[12]؛ لأنَّ أصل الدِّين هو الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ورأس المعروف هو التَّوحيد ورأس المنكر هو الشِّرك.

فيقال:

إنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر: هو دعوة الغير إلى إقامة دين الله وفعل كلِّ ما يُرضي الله، ونهيهم وتحذيرهم من كلِّ ما نهى عنه الله.

إنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر: هو دعوة الغير إلى إقامة دين الله وفعل كلِّ ما يُرضي الله، ونهيهم وتحذيرهم من كلِّ ما نهى عنه الله.

(10) «معجم مقاييس اللُّغة» (476/5).

(11) «النِّهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير (115/5).

(12) «الدُّرُّ المنثور» للسُّيوطي (518/10).

حكم الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر

من خلال الأحاديث الواردة في الباب يتبيَّن أنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر من الفروض والواجبات الَّتي أوجبها الله على هذه الأمَّة المرحومة؛ وذلك أنَّ قيام الدِّين لا يكون إلاَّ بقيام الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، «وهو فائدة الرِّسالة وخلافة النُّبوَّة»، وجاءت نصوص صريحة في وجوب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، من كتاب الله عزَّ وجلَّ، كقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [سورة آل عمران]، وقال تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة التوبة]، ثمَّ قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة التوبة].

قال القرطبي رحمه الله: «جعل تعالى الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر فرقًا بين المؤمنين والمنافقين، فدلَّ على أنَّ أخصَّ أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ورأسُها الدُّعاء إلى الإسلام والقتال عليه»[13].

بل أخبر سبحانه أنَّ سبب هلاك الأمم ونزول لعنة الله عليهم هو بسبب تركهم الأمرَ بالمعروف والنَّهيَ عن المنكر كما سيأتي بيانه في الآثار المترتِّبة على ترك هذا الواجب.

لذلك نقل الإجماعَ غيرُ واحدٍ على وجوب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر[14].

واختلف العلماء في مرتبة هذا الواجب أهو كفائيٌّ إذا قام به البعض سقط عن الباقين؟ أم أنَّه يتعيَّن على كلِّ مسلم القيام بهذا الأمر الوارد في كتاب الله وعلى لسان رسول الله ﷺ؟

(13) «الجامع لأحكام القرآن» (73/5).

(14) «التَّمهيد» لابن عبد البرِّ (281/23)، «شرح النَّووي على صحيح مسلم» (22/2).

● فذهب بعض العلماء إلى أنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر من الواجبات الكفائيَّة، واستدلُّوا بقول الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة آل عمران].

أخرج الطَّبري وغيره عن الضَّحَّاك أنَّه قال: «هم خاصَّة أصحاب رسول الله، وهم خاصَّة الرُّواة»[15].

قال الطَّبري رحمه الله: «يعني بذلك جلَّ ثناؤه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ﴾ أيُّها المؤمنون ﴿أُمَّةٌ﴾ يقول: جماعةٌ ﴿يَدْعُونَ﴾ النَّاس ﴿إِلَى الْخَيْرِ﴾ يعني إلى الإسلام وشرائعه الَّتي شرعها الله لعباده»[16].

قال ابن عطيَّة الأندلسي رحمه الله: «فعلى هذا القول «من» للتَّبعيض، وأمر الله الأمَّة بأن يكون منها علماء يفعلون هذه الأفاعيل على وجوهها، ويحفظون قوانينها على الكمال، ويكون سائر الأمَّة متَّبعين لأولئك؛ إذ هذه الأفعال لا تكون إلاَّ بعلم واسع، وقد علم تعالى أنَّ الكلَّ لا يكون عالمًا»[17].

ورجَّح هذا القول القرطبيُّ في «تفسيره»[18].

● القول الثَّاني: إنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر واجبٌ عينيٌّ على كلِّ أحد من أفراد الأمَّة، واستدلُّوا بالأحاديث الواردة في ذلك، ومنها: «**مَن رَأَى منكم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيَده فَإِن لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانه فَإِن لَم يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِه وَذَلكَ أَضْعَفُ الإيمَان**».

وأمَّا استدلال الفريق الأول بالآية على أنَّ «من» للتَّبعيض فردَّه أصحاب هذا القول بأنَّ «من» هنا ليست للتَّبعيض وإنَّما هي لبيان الجنس.

قال البغوي رحمه الله: «﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ أي: كونوا أمَّةً «من» صلة ليست للتَّبعيض، كقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [سورة الحج]، لم يُرد اجتناب بعض الأوثان بل أراد فاجتنبوا الأوثان»[19].

وقال ابن عطيَّة الأندلسي رحمه الله: «وذهب الزَّجَّاج وغير واحد من المفسِّرين، إلى أنَّ المعنى: ولتكونوا كلُّكم أمَّةً يدعون، و«من» لبيان الجنس، قال: ومثله من كتاب الله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [سورة الحج]، ومثله من الشِّعر قول القائل:

أَخُو رَغَائبَ يُعْطيها وَيَسْأَلُها
يأبى الظُّلامةَ منْهُ النُّوفَل الزُّفَرُ»[20].

● والقول الرَّاجح ـ والله أعلم ـ أنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر من فروض الأعيان، لكن كلُّ أحد بحسبه، ولا يجب على الإنسان تغييرُ كلِّ منكرٍ أو أمر بكلِّ معروف، إنَّما يجب عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر الَّذي يستطيعه.

قال ابن كثير رحمه الله: «والمقصود من هذه الآية أن تكون فرْقَة من هذه الأمَّة متصدِّيةً لهذا الشَّأن، وإن كان ذلك واجبًا على كلِّ فرد من الأمَّة بحسَبه»[21].

وقال ابن عطية الأندلسي رحمه الله: «وهذه الآية على هذا التَّأويل إنَّما هي عندي بمنزلة قولك: ليكن منك رجلٌ صالح، ففيها المعنى الَّذي يسمِّيه النَّحويُّون: التَّجريد، وانظر أنَّ المعنى الَّذي هو ابتداء الغاية يدخلها، وكذلك يدخل قوله تعالى: ﴿مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ ذاتها، ولا تجده يدخل قول الشَّاعر: «منه النُّوفل الزُّفر»، ولا تجده يدخل في «من» الَّتي هي صريح بيان الجنس، كقولك ثوب من خزٍّ، وخاتم من فضَّة، بل هذه يعارضها معنى التَّبعيض، ومعنى الآية على هذا التَّأويل: أمر الأمَّة بأن يكونوا يدعون جميع العالم إلى الخير، الكفَّار إلى الإسلام، والعصاة إلى الطَّاعة، ويكون كلُّ واحد من هذه الأمور على منزلته من العلم والقدرة.

قال أهل العلم: وفرض الله بهذه الآية، الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وهو من فروض الكفاية إذا قام به قائم سقط عن الغير»[22].

وقال ابن تيمية رحمه الله: «وكذلك الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر لا يجب على كلِّ أحدٍ بعينه، بل هو على الكفاية كما دلَّ عليه القرآن، ولمَّا كان الجهاد من تمام ذلك كان الجهاد أيضًا كذلك، فإذا لم يَقُم به مَن يقوم بواجبه أَثِم كلُّ قادر بحسب قدرته؛ إذ هو واجب على كلِّ إنسان بحسب قدرته؛ كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَن رَأَى منكم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيَده فَإِن لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانه فَإِن لَم يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبه وَذَلكَ أَضْعَفُ الإيمَان**»»[23].

(15) «جامع البيان» (5/662)، «الدُّرُّ المنثور» للسُّيوطي (3/718).
(16) «جامع البيان» (5/660).
(17) «المحرَّر الوجيز» (3/310).
(18) «الجامع لأحكام القرآن» (5/252ـ253).
(19) تفسير البغوي «معالم التَّنزيل» (4/84).
(20) «المحرَّر الوجيز» (3/310).
(21) «تفسير القرآن العظيم» (3/138).
(22) «المحرَّر الوجيز» (3/310).
(23) «مجموع الفتاوى» (28/126).

شروط الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر

لا شكَّ أنَّ مثل هذا الواجب الَّذي جاء بيانه في كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ، ووردت الآيات والأحاديث في التَّحذير من تركه وعدم القيام به، له شروط ينبغي توافرها في الآمر النَّاهي، وجاء في أحاديث الباب بيان بعض شروط هذه الطَّاعة، فمن ذلك:

□ **التَّكليف**: وهو مناط وجوب الأعمال والطَّاعات، فشرط الآمر أن يكون مكلَّفا، أي مسلمًا عاقلاً بالغًا.

□ **القدرة على التَّغيير**: وهذه القدرة متفاوتة من شخص لآخر، يبيِّنها قوله ﷺ: «**مَن رَأَى منكُم مُنْكَرًا فَليُغَيِّرهُ بيَدِه، فَإِن لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِن لَم يَسْتَطِعْ فَبِقَلبِه، وَذَلِكَ أَضعَفُ الإِيمَانِ**».

قال ابن عطية الأندلسي رحمه الله: «والنَّاس في تغيير المنكر والأمر بالمعروف على مراتب، ففرض العلماء فيه تنبيه الحكَّام والولاة، وحملهم على جادَّة العلم، وفرض الولاة تغييره بقوَّتهم وسلطانهم، ولهم هي: اليد، وفرض سائر النَّاس رفعه إلى الحكَّام والولاة بعد النَّهي عنه قولاً، وهذا في المنكر الَّذي له دوام، وأمَّا إن رأى أحد نازلةً بديهةً من المنكر، كالسَّلب والزِّنا ونحوه، فيغيِّرها بنفسه بحسب الحال والقدرة»[24].

□ **العلم والحلم والصَّبر**: وهذه الثَّلاثة لا بدَّ أن ترافق الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر في كلِّ الأحوال، فبالعلم يُعرف المعروف ويميَّز عن المنكر، بل أمر الله تعالى نبيَّه أن يخبر النَّاس بأنَّ سبيله في الأمر والنَّهي بالعلم والبصيرة فقال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [سورة يوسف].

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول الله تعالى لعبده ورسوله ﷺ إلى الثَّقلين الإنس والجنِّ، آمرًا له أن يخبر النَّاس: أنَّ هذه سبيله، أي طريقه ومسلكه وسنَّته، وهي الدَّعوة إلى شهادة أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بَصِيرةٍ من ذلك ويقينٍ وبرهانٍ، هو وكلُّ من اتَّبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرةٍ ويقينٍ وبرهانٍ؛ شرعيٍّ وعقليٍّ»[25].

وبالحلم يوفَّق الآمر لنشر دعوة الله.

وبالصَّبر ينال رضى الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فلابدَّ من العلم بالمعروف والمنكر والتَّمييز بينهما، ولا بدَّ من العلم بحال المأمور والمنهيِّ، ومن الصَّلاح أن يأتي بالأمر والنَّهي بالصِّراط المستقيم، وهو أقرب الطُّرق إلى حصول المقصود.

ولابدَّ في ذلك من الرِّفق كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَا كَانَ الرِّفقُ فِي شَيءٍ إلاَّ زَانَهُ وَلاَ كَانَ العُنفُ فِي شَيءٍ إلاَّ شَانَهُ**»، وقال: «**إِنَّ الله رَفيقٌ يُحبُّ الرِّفقَ فِي الأَمْرِ كُلِّه وَيُعطِي عَلَيه مَا لاَ يُعطِي عَلَى العُنف**».

ولابدَّ أيضًا أن يكون حليمًا صبورًا على الأذى؛ فإنَّه لابدَّ أن يحصل له أذى؛ فإن لم يحلم ويَصبر كان ما يُفسد أكثرَ ممَّا يُصلح، كما قال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [سورة لقمان]، ولهذا أمر الله الرُّسل - وهم أئمَّة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر - بالصَّبر؛ كقوله لخاتم الرُّسل؛ بل ذلك مقرون بتبليغ الرِّسالة، فإنَّه أوَّل ما أُرسل أنزلت عليه سورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ بعد أن أنزلت عليه سورة: ﴿ٱقْرَأْ﴾ الَّتي بها نُبِّئَ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ [سورة المدثر]، فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالنِّذارة وختمها بالأمر بالصَّبر، ونفسُ الإنذار أمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر، فعُلم أنَّه يجب بعد ذلك الصَّبر...

فلابدَّ من هذه الثَّلاثة: العلم والرِّفق والصَّبر.

العلمُ قبل الأمر والنَّهي، والرِّفق معه، والصَّبر بعده، وإن كان كلٌّ من الثَّلاثة مستصحبًا في هذه الأحوال؛ وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السَّلف ورووه مرفوعًا؛ ذكره القاضي أبو يعلى في «المعتمد»: «لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلاَّ من كان فقيهًا فيما يأمر به، فقيهًا فيما ينهى عنه، رفيقًا فيما يأمر به، رفيقًا

(24) «المحرَّر الوجيز» (3/311).

(25) «تفسير القرآن العظيم» (8/91).

فيما ينهى عنه، حليمًا فيما يأمر به، حليمًا فيما ينهى عنه.

وليُعلم أنَّ اشتراط هذه الخصال في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ممَّا يوجب صعوبته على كثير من النُّفوس؛ فيَظنُّ أنَّه بذلك يسقط عنه فيَدَعُه؛ وذلك ممَّا يضرُّه أكثر ممَّا يضرُّه الأمر بدون هذه الخصال أو أقلُّ[26].

وقال النَّووي رحمه الله: «إنَّما يأمرُ وينهى من كان عالمًا بما يأمر به وينهى عنه، وذلك يختلف باختلاف الشَّيء، فإن كان من الواجبات الظَّاهرة والمحرَّمات المشهورة كالصَّلاة والصِّيام والزِّنا والخمر ونحوها، فكلُّ المسلمين علماءُ بها، وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال وممَّا يتعلَّق بالاجتهاد لم يكن للعوامِّ مَدخل فيه، ولا لهم إنكاره، بل ذلك للعلماء، ثمَّ العلماء إنَّما ينكرون ما أُجمع عليه، أما المختلَف فيه فلا إنكار فيه؛ لأنَّ على أحد المذهبين كلُّ مجتهد مُصيب، وهذا هو المختار عند كثيرين من المحقِّقين أو أكثرهم، وعلى المذهب الآخر المصيب واحد والمخطئ غير متعيِّن لنا، والإثم مرفوعٌ عنه، لكن إن ندَبَه على جهة النَّصيحة إلى الخروج من الخلاف فهو حسنٌ محبوب مندوب إلى فعله برفق، فإنَّ العلماء متَّفقون على الحثِّ على الخروج من الخلاف، إذا لم يلزم منه إخلالٌ بسنَّة أو وقوع في خلاف آخر»[27].

□ أن لا يترتَّب على المنكر المنهيِّ عنه منكرٌ أعظم منه:

وهذا الشَّرط من أعظم الشُّروط الَّتي ينبغي مراعاته عند الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر؛ لأنَّ الغرض من ذلك هو إيجاد الخير وتكثيره، وإزالة الشَّرِّ وتقليله، فإذا أدَّى تغيير المنكر إلى منكر أشدَّ منه فلا يُنكر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «معلومٌ أنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر وإتمامه بالجهاد هو من أعظم المعروف الَّذي أُمرنا به، ولهذا قيل: ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غيرَ منكر.

وإذا كان هو من أعظم الواجبات والمستحبَّات، فالواجبات والمستحبَّات لابدَّ أن تكون المصلحة فيها راجحةً على المفسدة؛ إذ بهذا بُعثت الرُّسل ونزلت الكتب، والله لا يحبُّ الفساد؛ بل كلُّ ما أمر الله به فهو صلاح.

(26) «مجموع الفتاوى» (136/28)، «الاستقامة» (230/2ـ233).

(27) «شرح صحيح مسلم» (23/2).

وقد أثنى الله على الصَّلاح والمصلحين، والَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات، وذَمَّ الفساد والمفسدين في غير موضع، فحيث كانت مفسدةُ الأمر والنَّهي أعظمَ من مصلحته لم تكن ممَّا أمرَ الله به، وإن كان قد تُرك واجب وفُعل محرَّم؛ إذ المؤمن عليه أن يتَّقي الله في عباده، وليس عليه هُداهم، وهذا من معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: 105]، والاهتداء إنَّما يتمُّ بأداء الواجب، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر كما قام بغيره من الواجبات لم يضرَّه ضلالُ الضُّلَّال، وذلك يكون تارةً بالقلب، وتارةً باللِّسان، وتارةً باليد.

فأمَّا القلب فيجب بكلِّ حال؛ إذ لا ضرَر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**وَذَلِكَ أَدنَى** ـ أو ـ **أَضعَفُ الإيمَانِ**»، وقال: «**لَيسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَردَلٍ**»[28].

وقال أيضًا: «جماع ذلك داخل في القاعدة العامَّة: فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد، والحسنات والسَّيِّئات أو تزاحمت؛ فإنَّه يجب ترجيح الرَّاجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد، وتعارضت المصالح والمفاسد.

فإنَّ الأمرَ والنَّهي وإن كان متضمِّنًا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة، فيُنظر في المعارض له، فإن كان الَّذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثرَ لم يكن مأمورًا به؛ بل يكون محرَّمًا إذا كانت مفسدته أكثرَ من مصلحته، لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشَّريعة، فمتى قدر الإنسانُ على اتِّباع النُّصوص لم يعدل عنها، وإلاَّ اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنَّظائر، وقلَّ أن تُعوزَ النُّصوص من يكون خبيرًا بها وبدلالتها على الأحكام.

وعلى هذا إذا كان الشَّخصُ أو الطَّائفة جامعين بين معروف ومنكر بحيث لا يفرِّقون بينهما؛ بل إمَّا أن يفعلوهما جميعًا، أو يتركوهما جميعًا: لم يجز أن يؤمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر؛ بل ينظر: فإن كان المعروف أكثر أُمر به؛ وإن استلزم ما هو دونه من المنكر. ولم يُنه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه؛ بل يكون النَّهي حينئذٍ من باب الصَّدِّ عن سبيل الله والسَّعي

(28) «مجموع الفتاوى» (126/28)، «الاستقامة» (211/2).

في زوال طاعته وطاعة رسوله وزوال فعل الحسنات.

وإن كان المنكر أغلب نُهي عنه؛ وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف؛ ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزَّائد عليه أمرًا بمنكر وسعيًا في معصية الله ورسوله.

وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما ولم ينه عنهما.

فتارةً يصلح الأمر، وتارة يصلح النَّهي، وتارةً لا يصلح لا أمر ولا نهي حيث كان المعروف والمنكر متلازمين، وذلك في الأمور المعيَّنة الواقعة.

وأمَّا من جهة النَّوع فيُؤمر بالمعروف مطلقًا وينهى عن المنكر مطلقًا، وفي الفاعل الواحد والطَّائفة الواحدة يُؤمر بمعروفها وينهى عن منكرها، ويُحمد محمودها، ويُذَمُّ مذمومها بحيث لا يتضمَّن الأمر بمعروف فوات معروف أكبر منه أو حصول منكر فوقه، ولا يتضمَّن النَّهي عن المنكر حصول ما هو أنكر منه أو فوات معروف أرجح منه.

وإذا اشتبه الأمر استبان المؤمن حتَّى يتبيَّن له الحقُّ؛ فلا يقدم على الطَّاعة إلا بعلم ونيَّة وإذا تركها كان عاصيًا، فترك الأمر الواجب معصية، وفعل ما نهي عنه من الأمر معصية. وهذا باب واسع...»[29].

ثمَّ ذكر أمثلة من سنَّته ﷺ حيث ترك تغيير بعض المنكر لاستلزام وجود منكر أعظم منه.

وقال ابن القيِّم رحمه الله: «إنَّ النَّبيَّ ﷺ شرع لأمَّته إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبُّه الله ورسولُه، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنَّه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضُه ويمقتُ أهلَه، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم؛ فإنَّه أساسُ كلِّ شرٍّ وفتنة إلى آخر الدَّهر، وقد استأذن الصَّحابةُ رسولَ الله ﷺ في قتال الأمراء الَّذين يُؤخِّرون الصَّلاةَ عن وقتها وقالوا: أفلا نقاتلهم، فقال:«**لاَ مَا أَقَامُوا الصَّلاَةَ**»، وقال: «**مَن رَأَى من أَمِيرِهِ مَا يَكرَهُهُ فَليَصْبِرْ وَلاَ يَنْزِعَنَّ يَدًا مِن طَاعَة**»، ومَن تأمَّل ما جرى على الإسلام من الفتن الكبار والصِّغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصَّبر على منكر، فطلب إزالته فتولَّد منه ما هو أكبر منه؛ فقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكَّة أكبرَ المنكرات ولا يستطيع تغييرَها، بل لمَّا فتح الله مكَّة وصارت دار إسلام عزَم على تغيير البيت وردِّه على قواعد إبراهيم، ومنَعَه من ذلك ـ مع قدرته عليه ـ خشيةُ وقوع ما هو أعظم منه: من عدم احتمال قريش لذلك لقُرب عهدهم بالإسلام، وكونهم حديثي عهدٍ بكُفر، ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد لما يترتَّب عليه من وقوع ما هو أعظم منه كما وجد سواء.

فإنكار المنكر أربع درجات:

ـ الأولى: أن يزول ويخلفه ضدُّه.

ـ الثَّانية: أن يَقلَّ وإن لم يُزل بجملته.

ـ الثَّالثة: أن يخلفه ما هو مثلُه.

ـ الرَّابعة: أن يخلفه ما هو شرٌّ منه.

فالدَّرجتان الأوليان مشروعتان والثَّالثة موضع اجتهادٍ والرَّابعة محرَّمة...»[30].

وشروط الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر كثيرةٌ يجمعها العلم وتقدير المصالح والمفاسد.

آداب الآمر بالمعروف والنَّاهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر من الطَّاعات العظيمة الَّتي يقوم بها المسلم، وليكون لهذه الطَّاعة أثرها الإيجابي في المجتمع لابدَّ للقائم بها أن يتحلَّى بآداب وأخلاق تكون الحافز للمأمور والمُنهى أن يأتمر وينتهي، وجملة هذه الآداب كثيرة وبعضها تقدَّم في الشروط كالصَّبر والحلم، ومن ذلك:

□ **الإخلاص:** وهو الرُّكن الأعظم لكلِّ عمل يُتقرَّب به إلى العليِّ الأكرم، فكلُّ عمل لابدَّ أن يكون خالصًا لوجه الله تعالى لا دخل للعصبيَّة ولا للسُّمعة ولا لحبِّ الثَّناء والرِّياء فيه، لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [سُورَةُ الكَهفِ]، وقوله ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعمَالُ بِالنِّيَّاتِ وإِنَّمَا**

(29) «مجموع الفتاوى» (28/129ـ130)، «الاستقامة» (2/218).

(30) «إعلام الموقِّعين» (4/338ـ339).

لكُلِّ امرئٍ مَا نَوَى»[31]، وقوله أيضًا في الحديث القدسي: «**قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فيه مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[32]، وغير ذلك من الآيات القرآنيَّة والأحاديث النَّبويَّة.

☐ **الصَّبر**: وقد أمر الله تعالى أنبياءه بالصَّبر على تبليغ ما أمروا به، فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٣٥﴾ [الأحقاف]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٤﴾ [الأنعام]، وقال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٧﴾ [لقمان]، فعلى الآمرين بالمعروف والنَّاهين عن المنكر أن يصبروا على ما يصابون به في ذات الله كما يصبر المجاهدون على ما يصابون به في أنفسهم وأموالهم، فالصَّبر على الأذى في العرض أولى وأولى، وذلك لأنَّ مصلحة الأمر والنَّهي لا تتمُّ إلاَّ بذلك.

☐ **الحلم والرِّفق**: وتقدَّم أنَّ الحلم والرِّفق من الأمور المطلوبة في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ولولا الحلم والرِّفق بالنَّاس لما ائتمر أحد بأمر وطاعة، ولما انتهى عن منكر ومعصية، وتقدَّم قول النَّبيِّ ﷺ: «**إِنَّ الرِّفقَ لا يَكُونُ في شَيءٍ إلاَّ زَانَهُ ولاَ يُنزَعُ مِن شَيءٍ إلاَّ شَانَهُ**»[33]، وقال: «**مَنْ يُحْرَم الرِّفْقَ يُحْرَم الخَيْرَ**»[34].

والأصل في الدَّعوة أن تكون بالطُّرق الحكيمة، وأمثلة ذلك في السُّنَّة كثير، كحديث بول الأعرابي في المسجد حيث اقترف أمرًا عظيمًا؛ فلم يعنِّفه النَّبيُّ ﷺ ولم يزجره، بل علَّمه آداب المسجد، فقال الأعرابي: «**فَقَامَ النَّبيُّ ﷺ إليَّ بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي فَلَمْ يَسُبَّ، وَلَمْ يُؤَنِّبْ، ولم يضرب**»[35]، وزاد أن تركه يكمل بوله ولم يقطعه عليه.

وجاء مثله أيضًا في حديث آخر وهو حديث معاوية بن الحكم السُّلمي الَّذي شمَّت العاطس وهو في الصَّلاة فرماه النَّاس بأبصارهم، قال: «فلمَّا صلَّى رسول ﷺ - فبأبي هو وأمِّي - ما رأيت معلِّمًا قبله ولا بعده أحسنَ تعليمًا منه؛ فوالله ما كَهَرَني ولا ضربني ولا شتمني، قال: «**إِنَّ هَذهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسبِيحُ وَالتَّكبِيرُ وَقِرَاءَةُ القُرآنِ**»[36].

لكن من الخطأ أن تُفهم الحكمة والرِّفق المأمور بهما على غير مفهومها الصَّحيح، وذلك باعتبار أنَّ كلَّ شدَّة في الدِّين ليست من الحكمة، بل حيثما أفادت الشِّدَّة وكانت المصلحة فيها فهي مطلوبة، وقد أباح الله القتال إذا بغت إحدى الطَّائفتين ولم يمكن إيقاف بغيها إلاَّ بالقتال، فقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات].

وهذا نبيُّ الله موسى أمره الله تعالى أن يلين مع عدوِّه وهو فرعون، فقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه]، واشتدَّ مع أخيه هارون فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: 150].

والنَّبيُّ ﷺ عنَّف بعض الصَّحابة، فلمَّا أطال معاذ بن جبل رضي الله عنه الصَّلاة بقومه قال له: «**فَتَّانٌ فَتَّانٌ فَتَّانٌ!**»[37]، ولما قَتَل حبُّه وابن حبِّه أسامةُ بنُ زيد رضي الله عنه مشركًا نطق بكلمة التَّوحيد قال له: «**يَا أُسَامَةُ! أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ!**» قال أسامة: فما زال يُكرِّرها حتَّى تمنَّيت أنِّي لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم»[38]، إلى غير ذلك من النُّصوص الَّتي فيها الشِّدَّة وكانت المصلحة في ذلك، والأصل هو الرِّفق في الدَّعوة ومعاملة النَّاس باللِّين والرِّفق، لكن إن دعت الحاجة إلى استعمال الخشونة والشِّدَّة فليستعملها الدَّاعية خاصَّة مع رؤوس أهل البدع الَّذين يظهرون بدعهم ويدعون إليها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «المؤمن للمؤمن كاليدين

(31) أخرجه البخاري في «صحيحه» (1)، ومسلم في «صحيحه» (1907).
(32) أخرجه مسلم في «صحيحه» (2985).
(33) أخرجه مسلم في «صحيحه» (2594).
(34) أخرجه مسلم في «صحيحه» (2592).
(35) أخرجه أحمد في «المسند» (10533)، وهو في «الصَّحيحين» بغير هذا اللَّفظ.
(36) أخرجه مسلم في «صحيحه» (537).
(37) أخرجه البخاري في «صحيحه» (701)، ومسلم في «صحيحه» (465).
(38) أخرجه البخاري في «صحيحه» (4269)، ومسلم في «صحيحه» (96).

تغسل إحداهما الأخرى، وقد لا ينقلع الوسخ إلاَّ بنوع من الخشونة، لكن ذلك يوجب من النَّظافة والنُّعومة ما نحمد معه ذلك التَّخشين»[39].

إلى غير ذلك من الآداب العامَّة والأخلاق الفاضلة الَّتي ينبغي أن يراعيها الآمرون بالمعروف والنَّاهون عن المنكر.

ثمار الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر

لا شكَّ أنَّ كلَّ طاعة لله عزَّ وجلَّ تؤتي ثمارها وأكلها في الدُّنيا والآخرة، وقيام العبد بهذا الواجب مع تحمُّل مشاقِّه وصعابه يؤجر عليه، فيكون الأجر على قدر المشقَّة، ومن ثمار ذلك:

□ **الفلاح والنَّجاة في الدُّنيا والآخرة:** قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104)﴾ [سورة آل عمران].

فعلَّق الفلاح على الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والفلاح هنا يشمل فلاح الدُّنيا وفلاح الآخرة بالوصول إلى البغية المنشودة من دخول الجنان ورؤية الكريم المنَّان.

وكذلك ورد في حديث الباب في القوم الَّذين ركبوا السَّفينة وكانوا أسفلها، فإن يخرقوا خرقًا ويتركهم من فوقهم ولا ينهونهم يهلكوا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا هم وأنجوا غيرهم، وهكذا الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر يُنجي العبد الآمر والمأمور من عقاب الله وعذابه.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (165)﴾ [سورة الأعراف].

□ **ثبوت خيريَّة هذه الأمَّة:** باتِّصافها بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران : 110].

قال ابن عطية: «وهذه الخيريَّة الَّتي فرضها الله لهذه الأمَّة إنَّما يأخذ بحظه منها مَن عمل هذه الشُّروط من الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر والإيمان بالله»[40].

□ **حماية الأرض من انتشار الفساد والشَّرِّ فيها:** قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251)﴾ [سورة البقرة].

قال مكِّي بن أبي طالب رحمه الله: «أي بدفع أهل الطَّاعة عن أهل المعصية، وبالبرِّ عن الفاجر»[41]، إلى غير ذلك من الثِّمار اليانعة من إقامة شعائر الدِّين وإظهاره، وإقامة الحجَّة على المعاندين المصرِّين على الآثام والمعاصي والكفر.

عواقب ترك الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر

جاء بيان العواقب الوخيمة في ترك النَّاس للأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، فعواقب التَّقصير فيه كثيرة، فمن ذلك:

□ **اللَّعن والطَّرد من رحمة الله عزَّ وجلَّ:**

فترك الأمر بالمعروف عاقبته الطَّرد واللَّعن، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79)﴾ [سورة المائدة].

□ **الهلاك ونزول الغضب والعقاب الإلهي:**

كما تقدَّم في حديث حذيفة: «**وَالَّذي نَفسي بِيَده لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوف وَلَتَنْهَوُنَّ عَن المُنْكَر أَوْ لَيُوشكَنَّ اللهُ أَنْ يَبعَثَ عَلَيكُمْ عِقَابًا منْهُ**»، وحديث أمِّ سلمة: «أنهلك وفينا الصَّالحون؟ قال: **نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ**».

وعن أبي بكر الصِّدِّيق أنَّه قال: «أيُّها النَّاس إنَّكم تقرءون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة :105]، وإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوا الظَّالمَ فَلَم يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْه أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بعقَاب منْهُ**»[42].

(39) «مجموع الفتاوى» (53/28).

(40) «المحرَّر الوجيز» (318/3).

(41) «الهداية في بلوغ النهاية» (871/1).

(42) رواه التِّرمذي في «جامعه» (2168).

□ عدم استجابة الدُّعاء:

كما جاء في حديث حذيفة المتقدِّم: «**وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبعَثَ عَلَيكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يُستَجَابُ لَكُمْ**».

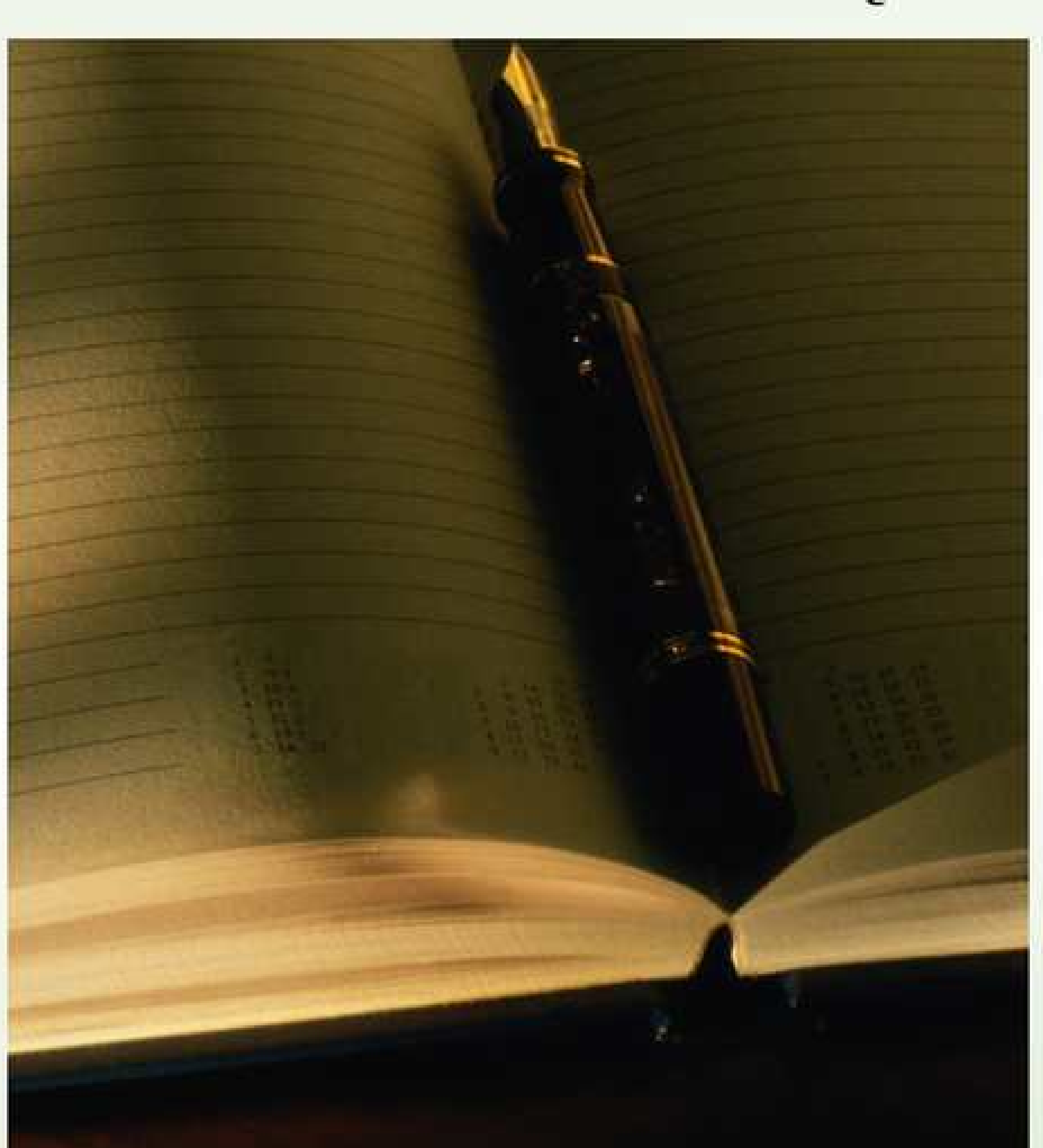
فمن أسباب ردِّ الدُّعاء عدم تغيير المنكر وترك الأمر بالمعروف، فبالتَّالي يزداد الشَّرُّ وينتشر.

إلى غير ذلك من العواقب والمفاسد المترتِّبة على ترك هذا الواجب الجليل.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

«ومن تأمَّل أحوال الرُّسل مع أممهم وجدهم كانوا قائمين بالإنكار عليهم أشدَّ القيام، حتَّى لقوا الله تعالى، وأوصوا من آمن بهم بالإنكار على من خالفهم، وأخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ المتخلِّص من مقامات الإنكار الثَّلاثة ليس معه من الإيمان حبَّة خردل وبالغ في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر أشدَّ المبالغة حتَّى قال: «**إنَّ النَّاسَ إذَا تَرَكُوهُ أَوشَكَ أن يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِندِهِ**»، وأخبر أنَّ تركه يمنع إجابة دعاء الأخيار، ويوجب تسلطَّ الأشرار، وأخبر أنَّ تركه يوقع المخالفة بين القلوب والوجوه، ويُحلُّ لعنة الله كما لعن الله بني إسرائيل على تركه»[43].

(43) «مدارج السَّالكين» (123/3).



الفوائد المستنبطة من أحاديث الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر

من الفوائد المستنبطة من خلال دراسة بعض الأحاديث الواردة في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر:

□ أنَّ إقامة الدِّين لا تكون إلاَّ بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ورأس المعروف توحيد الخالق جلَّ وعلا، ورأس المنكر الشِّرك به سبحانه.

□ أنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر من الواجبات المجمع على وجوبها، واختلف العلماء في مرتبة وجوبها على العين أم الكفاية إن قام به بعض سقط عن الباقين.

□ أنَّ للأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر شروطًا أعظمها العلم والقدرة على التَّغيير،وأن لا يترتَّب منكر أعظم منه.

□ إنكار المنكر أربع درجات، اثنتان مشروعتان، وواحدة محرَّمة، وأخرى محلُّ اجتهادٍ.

□ للأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر آداب وأخلاق تعين القائم به على قبول دعوته كالإخلاص لله، والصَّبر وتحمُّل الأذى، والحلم والرِّفق بالمدعوِّين.

□ قد تكون الشِّدَّة والغلظة في مواضع ومواقف أجدى وأرجح من الرِّفق.

والله أعلى وأعلم، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه.



لكل قوم وارث

التحرير

إنَّنا في زمن خفق فيه صوتُ أهل الحقِّ إلاَّ قليلاً، وتعالت صاخبةً أصوات أصحاب الباطل من أهل الأهواء والبدع والضَّلالات، فعملت الألسنة السَّليطة والأقلام الحاقدة عملَها في الأمَّة، فقدحت في منهج أهلِ الحقِّ، أهلِ السُّنَّة والجماعة، أهلِ الحديث والأثر، وطعنت في القرون الثَّلاثة الأولى المفضَّلة، وفي دعوتهم المباركة، وخاضت فيها بالانتقاص والازدراء والتَّهجُّم والطَّعن والتَّنفير والتَّضليل والتَّلبيس، في حملة مسعورة، وحرب شعواء لم يسبق لها مثيل، في مختلف وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئيَّة، في الوقت الَّذي يُشَادُ فيه بالرَّافضة (الصَّفَوِيَّة) وبالطُّرقيَّة والمزارات الشِّركيَّة والأعياد البدعيَّة، حربًا يتولى تسعيرها العقلانيون ممَّن خرج من ضِئْضِئ المعتزلة الأوَّلين، ومن مدرسة المستشرقين، وممَّن ينتسب زورًا إلى الدَّعوة الإسلاميَّة من الكتَّاب والأدباء والمفكِّرين!

ومن هؤلاء كاتبٌ ـ هداه الله ـ لم يكتب بعدل، ولا كما أمره الله أن يكتب، نطق من قريب في بعض الصُّحف عندنا بكلام خطير عظيم، يُنبئ عمَّا في نفسه من سوء قصده وخيانته لعموم المؤمنين، حيثُ طعن الجاني في القرون الثَّلاثة الأولى، وادَّعى زورًا وبهتانًا «أنَّ السَّلفيَّة بدعة مقدَّسة أوجدتها السُّلطة السِّياسيَّة»، وأنَّه «إذا كانت خاتمة الصَّحوة الإسلاميَّة كما يبدو سلفيَّة فقد خابت وخسرت وانتكست!»، كما جعل ـ في ظنِّه الخاطئ السَّقيم، وفكره المريض العقيم ـ للتَّصوُّر الفقهيِّ هيمنةً على الإسلام حتَّى غدَا منظومةً تشريعيَّةً ناشفة! على حدِّ تعبير هذا المتنكِّر.

كلُّ هذا في أسلوب أدبيٍّ يتشدَّق به، ولغة معقَّدة ينتحلها لتمرير سموم يمكن تأويلها إذا اعتُرض عليه، والتَّباكي بأنَّ الرَّافض لأفكاره المنكوسة لا يرقى لفهم خطابه، فضلاً عن الاقتناع والعمل به! وكيفَ يُفهمُ كلامُ رجلٍ يعتبر الصُّوفيَّةَ وجوديَّةَ الإسلام! وأنَّ لبعض العبَّاد من الأولياء علاقة حميميَّة استثنائيَّة مع الله! والمتصوِّف الحقُّ في نظره هو الَّذي: «يقيم حياته على أساس منابذة الجماعة والخليفة والفقيه!»، وأنَّ الجماعة احتكرت الله على حساب الفرد! ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ جملة من الألفاظ حملت معاني الخزي والخذلان، في قالب أدبيٍّ، عهدنا نظائره من أقوام سابقين تشابهت قلوبهم فتطابقت ألسنتهم.

إنَّ ظاهرة التَّطيُّر بالسَّلفيِّين صارت «**مُوضةَ**» هذا القرن؛ إذ لا تكاد تخلو صحيفة من الصُّحف أو مجلَّة من المجلاَّت، من مختلف أنواع اللَّمز والهمز والسَّبِّ والشَّتم والتَّنقيص من علماء الأمَّة، وأئمَّتها ـ أئمَّة الهدى ـ!

فيا سبحان الله! فَلعَمَى بصائر هؤلاء «اعتبروا مصادر الخير والهداية مصادر للشَّرِّ والغواية، كما تطيَّر أسلافهم بالأنبياء وأتباعهم»[1]، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾ [سُورَةُ الأَعۡرَافِ]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ]، وغير ذلك من الآيات الدَّالَّة على مثل هذا الميراث الذَّميم.

إنَّ الله ـ جلَّ وعلا ـ قد حفظ هذا الدِّين الحنيف، وجعل كتابه مُهَيْمِنًا على غيره من الكتب، وحمَّله رجالاً عدولاً؛ فحملوه ووعوه

(1) «البيان لأخطاء بعض الكتَّاب» (21/2) للشَّيخ صالح الفوزان، حفظه الله تعالى.

مسائل منهجية

وبلَّغوه كما سمعوه، وعلى رأس هؤلاء صحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم جميعًا، ثمَّ من تبعهم بإحسان.

إنَّ تقيُّد السَّلفيِّين بفهم السَّلف الصَّالح أهل القرون الثَّلاثة الأولى ليس مبنيًّا على اعتقاد منهم بقداسة هذه القرون في نفسها، أو بعصمة أفرادها، ولا ـ كما ظنَّ الكاتب ـ لمحاولة الأوَّلين إضفاء القداسة على تراثهم من خلال ما تركوه لنا من آثار، كلاَّ، وإنَّما يرجع التَّقيُّد بفهم السَّلف الصَّالح واتِّباعُهم عند جميع السَّلفيين بحقٍّ، إلى تقديسهم لنصوص الوحيين من الكتاب والسُّنَّة، النَّاطقة بصدق وعدل بوجوب الالتزام بفهم الأوَّلين من الصَّحابة والتَّابعين وتابعيهم بإحسان، ومن هذه النُّصوص:

■ قول الله جلَّ وعلا: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)﴾ [سورة التوبة].

«صرَّح تعالى في هذه الآية الكريمة بأنَّ الَّذين اتَّبعوا السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار بإحسان، أنَّهم داخلون معهم في رضوان الله تعالى، والوعد بالخلود في الجنَّات والفوز العظيم،... **وهو دليلٌ قرآني صريح في أنَّ مَنْ يسبُّهم ويبغضهم؛ أنَّه ضالٌّ مخالف لله جلَّ وعلا، حيث أبغض مَنْ رضي الله عنه؛ ولا شكَّ أنَّ بغض مَنْ رضي الله عنه مضادة له جلَّ وعلا، وتمرُّد وطغيان**»[2].

■ وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: 15]، «وَالسَّلَفُ المؤمِنُونَ مُنِيبُونَ أَيْ فَيَجِبُ اتِّبَاعُ سَبِيلِهِم»[3].

■ إنَّه لا يمكن لأحد ـ مهما كان ـ أن يفهم الدِّين والسُّنَّة إلاَّ إذا اتَّبع سبيلهم ورجع إلى فهمهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)﴾ [سورة النساء]، فمشاقَّة الرَّسول وحدها موجبة للعقاب وصلي النَّار، لكنَّ الآية زادت: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذا دليل على وجوب اتِّباع سبيلهم، وعلى أنَّ تركه موجب لصلي النَّار، فلا يستنكف عن اتِّباع السَّلف إلاَّ مَنْ كان في قلبه مرض وبدعة؛ إذ «أَنَّ شِعَارَ أَهْلِ البدَعِ: هُوَ تَرْكُ انْتِحَالِ اتِّبَاعِ السَّلَفِ»[4].

■ وقد أمرنا الله عزَّ وجلَّ أن نكون معهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)﴾ [سورة التوبة]، قال ابن عمر رضي الله عنهما: «مع محمد ﷺ وأصحابه»[5]، وهل يعقل أن يكون هناك صادقون أعظم وأفضل من الصَّحابة وأهل القرون الثَّلاثة المشهود لهم بالخيريَّة؟!

إنَّ تقيُّد السَّلفيِّين بفهم السَّلف الصَّالح أهل القرون الثَّلاثة الأولى ليس مبنيًّا على اعتقاد منهم بقداسة هذه القرون في نفسها، أو بعصمة أفرادها، ولا ـ كما ظنَّ الكاتب ـ لمحاولة الأوَّلين إضفاء القداسة على تراثهم من خلال ما تركوه لنا من آثار، كلاَّ، وإنَّما يرجع التَّقيُّد بفهم السَّلف الصَّالح واتِّباعُهم عند جميع السَّلفيين بحقٍّ، إلى تقديسهم لنصوص الوحيين من الكتاب والسُّنَّة، النَّاطقة بصدق وعدل بوجوب الالتزام بفهم الأوَّلين من الصَّحابة والتَّابعين وتابعيهم بإحسان

(2) «أضواء البيان» (148/2).
(3) «مجموع الفتاوى» (500/20).
(4) «مجموع الفتاوى» (155/4).
(5) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» رقم (10097).

■ وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**»[6].

فهذه تزكية من رسول الله ﷺ لأهل هذه القرون الثَّلاثة، وهي دليل على فضلهم وعلوِّ درجتهم، وبرهانٌ على علمهم وصلاح قلوبهم وأعمالهم، وحجَّةٌ على أنَّهم أحقُّ أن يُتَّبعوا ويُقتدى بهم.

قال الإمام المصلح ابن باديس رحمه الله: «الإسلام إنَّما هو في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ وما كان عليه سلفُها من أهل القرون الثَّلاثة المشهود لهم بالخيريَّة على لسان الصَّادق المصدوق»[7].

إنَّ القرون الثَّلاثة الأولى هي خير مجتمع عرفته البشريَّة في الصَّلاح والاستقامة والعدل والإحسان، شهد بذلك المنصفون من المسلمين وغيرهم، وأثبت ذلك التَّاريخ الَّذي لم يتلوَّث بلوثة رافضيَّة، أو نزعة اعتزاليَّة، أو ثورة خارجيَّة، أو سفسطة عقلانيَّة، أو شطحات صوفيَّة!

إنَّه لا يصلح حال المسلمين ولا تقوم لهم قائمة ولا تجتمع لهم كلمة إلاَّ بالرُّجوع إلى هذا الدِّين، وفْقَ فَهْم القرون المشهود لها بالخيريَّة، وبخاصَّة قرن الصَّحابة رضي الله عنهم، قال رسول الله ﷺ: «**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ...**»[8].

قال الإمام مالك رحمه الله في كلمته المشهورة: «لا يصلح آخر هذه الأمَّة إلاَّ ما أصلح أولها».

وبعد هذا كلِّه، كيف يُنكَرُ على مَنْ يتمسَّك بما كان عليه السَّلف وعلى رأسهم أهل القرون المفضَّلة، مع أنَّه متمسِّك بحبلٍ متين وآوٍ إلى ركن شديد!

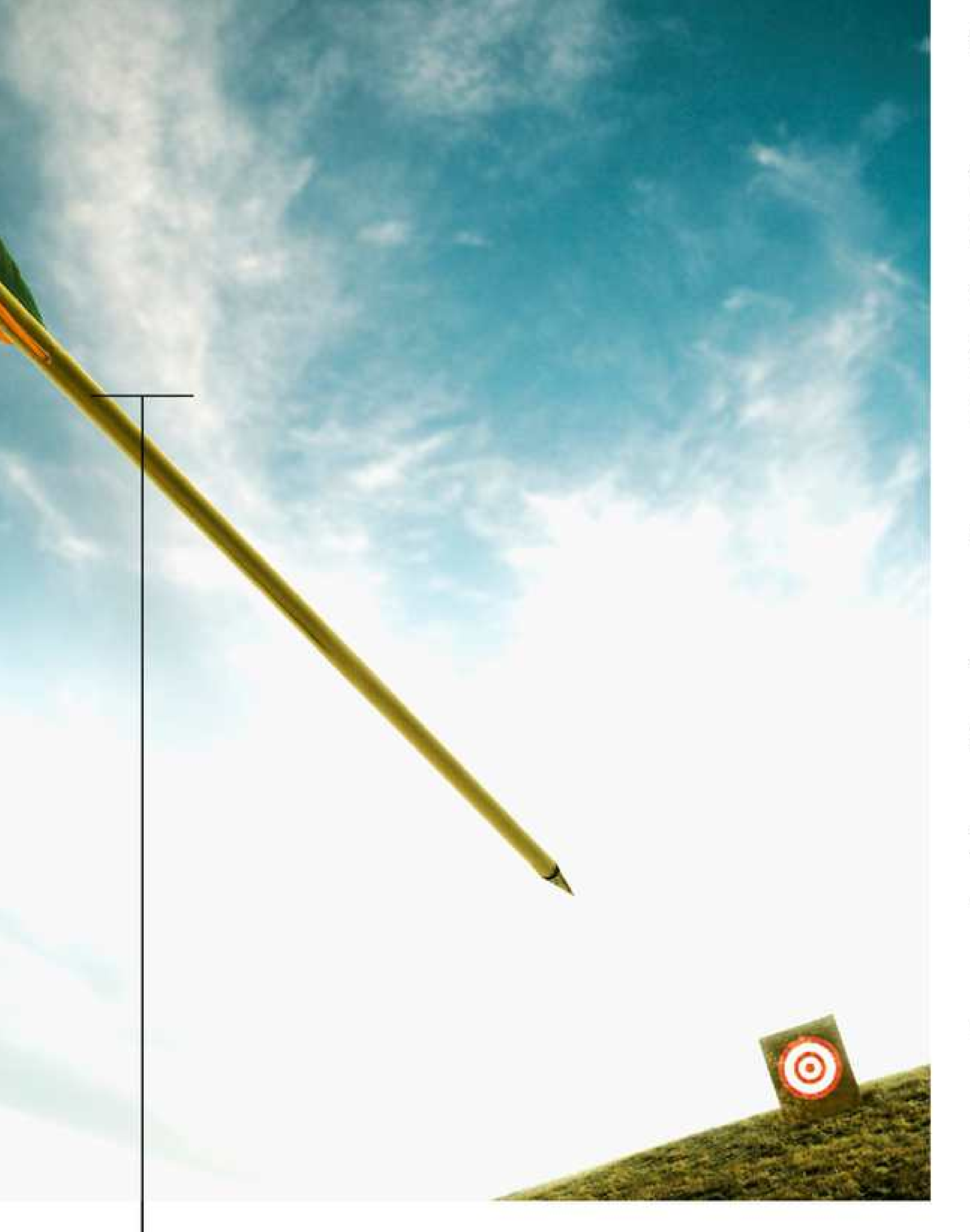
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لا عيْبَ على مَنْ أَظْهَرَ مذهبَ السَّلَف وَانتسبَ إليه واعتَزَى إليه، بل يَجبُ قَبُولُ ذلك منه بالاتِّفَاق؛ فإنَّ مذهبَ السَّلَفِ لاَ يَكُونُ إلاَّ حَقًّا»[9].

وصدق عمر بن عبد العزيز رحمه الله حيث قال: «فَارْضَ لنفسك ما رَضيَ به القوم لأنفسهم، فإنَّهم السَّابقون وإنَّهم عَنْ عِلْمٍ وَقَفُوا، وببصرٍ نَافذ كفُّوا»[10].

نسأل الله ـ جلَّ وعلا ـ السَّلامةَ والعافيةَ؛ فإنَّه لم يُؤتَ أحدٌ قطُّ بعدَ اليقين أفضلَ منهما، كما نسأله تعالى الهداية والتَّوفيق لما يحبُّ ويرضى، فإنَّ الهدايةَ هبةٌ ربَّانيَّةٌ يختصُّ الله تعالى بها مَن يشاء من عباده، فضلاً منه ونعمةً، وهو العليم الحكيم، ذو الفضل العظيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

(6) رواه البخاري (2652) ومسلم (2533).
(7) «الآثار» (73/5).
(8) حديث صحيح رواه أحمد (17145)، وعنه أبو داود (4607).
(9) «مجموع الفتاوى» (149/4).
(10) رواه ابن وضَّاح في «البدع والنَّهي عنها» (30 ـ 31).



روائح المسك من فوائد قصة الإفك

سليم مجوبي
طالب في مرحلة الدكتوراه

تكلّم بعض الأنجاس الحاقدين من أهل الإفك المعاصرين ـ ويدعى: «ياسر الحبيب» ـ في عرض الطّاهرة العفيفة، الحَصان الرّزان، الصدّيقة بنت الصّدّيق عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها وعن أبيها، وهذا المتكلّم لم يضرَّ إلاّ نفسه، ولن يضرَّ أمَّ المؤمنين أُفًّا ولا تُفًّا[1]، كيف وقد برَّأها الله ـ عز وجل ـ ممَّا رُميت به، وأنزل في شأنها قرآنًا يتلى إلى يوم الدِّين، ولكنَّه الحقدُ الدَّفين والبغض المبطَّن والمعلن من الرَّوافض الأفَّاكين لصحابة رسول الله ﷺ، ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: 118] وكيف يكون هذا الأفَّاك الأثيم ياسرًا حبيبًا وهو يتعرَّض لعرض رسول الله ﷺ، فوالله وبالله وتالله! إنَّه لعاسر بغيض من كلِّ سنيٍّ صادق يحبُّ رسول الله ﷺ، ويحبُّ أهل بيته، ويحبُّ أمَّهات المؤمنين وصحابته الكرام رضي الله عنهم.

ورحم الله أبا الأسود الدُّؤلي، لو لم يخترع النَّقط على الحروف[2] لما قُرئ اسم هذا اللَّعين إلاَّ هكذا «ناشز الخبيث»، عليه من الله ما يستحقُّ.

■ ■ ■

(1) الأف: الوَسَخُ الَّذي حَوْلَ الظُّفُرِ والتُّفُّ الَّذي فيه، وقيل: الأُفُّ وسَخ الأُذن والتُّفُّ وسَخ الأظفار، وقيل: الأُفُّ والأَفف القلَّة والتُّفُّ منسوق على أُفٍّ، ومعناه كمعناه. [«لسان العرب» (مادَّة: أفف)].

(2) وقيل: أوَّل من وضع ذلك نصر بن عاصم اللَّيثي، وأوَّل من شكل المصحف أبو الأسود، ثمَّ عدَّل ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي؛ فصار النَّقط والشَّكل على ما هو عليه بين أيدينا اليوم.

إنَّ في قصَّة الإفك فوائد عظيمة وعبر جسيمة، أوصلها بعضهم إلى السَّبعين، وجاوز بها آخرون المائة[1]، وسأذكر منها بإذن الله ما يناسب المقام.

■ براءة أمِّ المؤمنين عائشةَ رضي الله عنها ممَّا رماها به أهلُ الإفك، بشهادة الله عز وجل لها، وتسميته ما قيل فيها إفكا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: 11] وبهتانًا عظيمًا: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: 16]، وبشهادة رسول الله ﷺ في قوله: «**أَبْشِري يَا عَائِشَةُ! أَمَّا اللهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ**».

■ من رمى أمَّ المؤمنين بالفاحشة بعد نزول هذه الآيات فهو كافرٌ مرتدٌّ بإجماع المسلمين[2]؛ لأنَّه مكذِّبٌ لله ورسوله ﷺ.

■ في قول عائشةَ في الحديث: «وكان الَّذي تولَّى كبره عبد الله بن أبي بن سلول» تفسير لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور: 11].

ولا شكَّ أن **ناشز الخبيث** هو الَّذي تولَّى كبرَ ذلك في هذه الأيَّام، فله نصيب من هذه الآية ـ بإذن الله ـ، ومن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور: 23]، إن لم يتداركه الله بالتَّوبة من نحلته ومذهبه.

(1) انظر مثلاً في فوائد هذا الحديث: «فتح الباري» (479/8)، و«شرح النَّووي على مسلم» (113/17).

(2) نقل الإجماع ابن كثير في «تفسيره»، وابن القيم في «زاد المعاد»، والنَّووي في «شرح مسلم».

■ في قوله تعالى: ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ أي: جماعة منكم ينتسبون إليكم، وهؤلاء منهم من يُظهر الإسلام ويبطن الكفر، ومنهم من هو مؤمنٌ حقًّا لكنَّه اغترَّ بكلام المنافقين فوقع فيما وقع فيه، وفيه تحذير للمسلمين من أناس من بني جلدتنا ويتكلَّمون بألسنتنا، يزعمون الانتساب للإسلام، ويلبسون القمص والعِمام[3]، والإسلام منهم بريء براءة عائشة من الإفك، وهذا البغيض منهم بلا شكٍّ، هو وأمثاله.

■ في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني المؤمنين وفي مقدَّمتهم آلُ أبي بكر، والخير مستمرٌّ إلى يوم النَّاس هذا، ومنه ظهور فضل عائشة واشتهارُه وانتشاره بين النَّاس، وتجديد المحبَّة لها، والدِّفاعُ عنها وعن عرض رسول الله ﷺ، يظهر ذلك من خلال ما كُتب وأُلقي من قصائد ومقالات ومحاضرات وندوات على الشَّبكة، وفي القنوات، ومن الخير كذلك افتضاحُ الطَّاعن فيها والمتنقِّص لها، هو ومن هو على مذهبه ونحلته، وعدمُ اغترار النَّاس بهم، خصوصًا بعد نصرهم المزعوم على اليهود، فليس الفرح بهزيمة اليهود بأولى من الفرح بهزيمتهم، بل كلاهما يفرح به، لاسيما وهما وجهان لعملة واحدة، وليس رأسُ ملَّتهم عبد الله بن سبأ إلاَّ يهوديًّا أظهر الإسلام ليكيد أهلَه، وما التَّعاون بينهم في السِّرِّ والعلن بخافٍ على من يفقه الواقع ويقرأ التَّاريخ، وما سقوط بغداد في القديم والحديث عنَّا ببعيد، فاللَّهم اضرب الظَّالمين بالظَّالمين وأخرجنا من بينهم سالمين.

■ بيان عفَّة عائشة وحيائها حين رأت صفوان بن المعطَّل رضي الله عنه قالت: «فخمَّرت وجهي بجلبابي»

■ بيان عفَّة صفوان رضي الله عنه وحيائه، فلم يزد حين رآها على أن استرجع؛ قالت عائشة: «ووالله ما كلَّمني كلمةً ولا سمعتُ منه كلمةً غيرَ استرجاعه».

فأين هذا ممَّن يمازح ويضاحك من يعرف ومن لا يعرف من النِّساء، وربَّما احتجَّ بحجج دينيَّة!

■ في قولها لأمِّ مسطح: «أتسبِّين رجلاً قد شهد بدرًا» فضيلة لأهل بدر ومنهم مسطح بن أثاثة رضي الله عنه، وقد قال النَّبيُّ ﷺ لعمر ابن الخطَّاب: «**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الله اطَّلَعَ عَلَى أَهلِ بَدرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[4].

■ من عُرف بالتَّقوى والصَّلاح والعفَّة والطَّهارة لا ينبغي أن يُشَان بمجرَّد الشَّائعات. ودليله من الحديث، قول أسامة رضي الله عنه: «يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلاَّ خيرًا»، وكذا ما ذكَرَته بريرة عن عائشة.

■ البحثُ عن حال من اتُّهم بشيء، وسؤالُ من يعرفه حتى يتبيَّن أمرُه، ودليله من الحديث سؤال النَّبيِّ ﷺ بريرة عن عائشة، وخصَّه بعضُهم بمن كان أمرُه يَعنيك، وإلاَّ فلا.

■ مشروعية ذبِّ المسلم عن عرض أخيه خاصَّة إذا كان من أهل الفضل، ومنه قول عائشة لأمِّ مسطح: أتسبِّين رجلاً قد شهد بدرًا، وقوله ﷺ: «**فَوَالله مَا عَلمتُ عَلَى أَهْلِي إلاَّ خَيرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً مَا عَلِمتُ عَلَيه إلاَّ خَيرًا**».

■ كراهة من يطعن في أهل الفضل والصَّلاح أو يتَّهمهم، ولو كان من الأقربين، ودليله من الحديث إنكار عائشة رضي الله عنها دعاء أمِّ مسطح على ولدها.

■ الطَّعن في عرض النَّبيِّ ﷺ وعرضِ زوجاته ليس من الأمور الهيِّنة الَّتي يُسكت عليها ويُلتمس فيها العذرُ للمخالف ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [سورة النور]، بل هو من الأمور العظيمة الَّتي تُضرب دونها الأعناق، ودليله من الحديث قول سعد بن معاذ ـ وكان سيِّد الأوس ـ: يا رسول الله! إن كان في الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

وهذا **النَّاشز الخبيث** حقيقٌ بأن تُضرب عنقُه.

فلتخرس الأقلام الدَّاعية إلى التَّقارب مع الرَّوافض، والمخذِّلة لمن يدافع عن بيضة أهل السُّنَّة، بحُجَّة أنَّ ذلك يُثير الفتن الطَّائفيَّة.

■ المنتحلون لسبِّ الصَّحابة والقرابة هم أصحاب الفتن ومثيروها، وبسببهم حدث التَّفرُّق بين المسلمين، ودليله من الحديث ما حدث بين الأوس والخزرج بحضرة رسول الله ﷺ بسبب الكلام في أمِّ المؤمنين حتَّى هدَّأهم وسكَّتهم.

(3) جمع عمامة.

(4) متَّفق عليه.

■ سبُّ الصَّحابة والقرابة من صفات المنافقين، والدِّفاعُ عمَّن يسبُّهم والتماسُ العذر له والمجادلةُ عنه من صفات المنافقين كذلك، ودليله من الحديث، قول أسيد بن حضير رضي الله عنه لسعد ابن عبادة رضي الله عنه: «كذبتَ لعَمر الله لنقتلنَّه، فإنَّك منافق تجادل عن المنافقين».

وسعد بن عبادة رضي الله عنه من كبار الصَّحابة وسادتهم، وهو سيِّد الخزرج، وشهِد بيعة العقبة، وأثبت البخاريُّ أنَّه شهِد بدرًا أيضًا، وحاشاه أن يكون من المنافقين، ولكن كما قالت عائشة: «وكان رجلاً صالحًا، ولكن اجتهلته الحميَّة»، أي: أغضبته.

■ وفي قول عائشة رضي الله عنها دليلٌ على أنَّ الرَّجل الصَّالح إذا حصل منه زلَّة أو هفوة؛ لم يُخرجه ذلك عن وصفِ الصَّلاح، ويُعتذر له في ذلك مع بيان خطئه.

■ الحميَّةُ للعصبة أو القرابة أو القوم أو الوطن توقع فيما لا تُحمد عقباه، ودليله من الحديث: فثار الحيَّان الأوس والخزرج حتَّى همُّوا أن يقتتلوا.

■ ذمُّ الغضب؛ فإنَّه يُخرج الحليم المتَّقي إلى ما لا يليق به، ودليله من الحديث ما حصل بين السَّعْدين وأُسيد بن حضير والأوس والخزرج.

■ جواز الإغلاظ في القول على من يتعصَّب للباطل ويدافع عن المبطلين، ودليله من الحديث ما حصل بين أُسيد وسعد بن عبادة رضي الله عنهما وعدم إنكار النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لذلك.

■ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم لا يَعلم الغيبَ على الإطلاق، بل لا يَعلم منه إلاَّ ما أطلعه الله عليه، ودليله من الحديث قوله لعائشة رضي الله عنها: «**أَمَّا بَعدُ يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْك كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنت بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ الله وَإِن كُنت أَلْمَمت بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِري الله وَتُوبي إِلَيْه**»، فلو كان يعلم الغيب لأخبر النَّاس ببراءتها.

■ من وقع في معصية مهما عظُمت فإنَّه يتوب إلى الله ويستغفره، والله عز وجل يَقبل التَّوبة عن عباده، ودليله من الحديث قول النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها: «**وَإِن كُنت أَلْمَمت بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِري الله وَتُوبِي إِلَيْهِ فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ؛ تَابَ الله عَلَيْه**».

■ من تُكلِّم فيه بجرحٍ أو طُعِن في عرضه بغير حقٍّ، وكان بريئًا فصبر وفوَّض أمره إلى الله؛ فإنَّ الله يُظهر فضله وبراءته عند النَّاس عاجلاً أو آجلاً، ودليله في الحديث قول عائشة رضي الله عنها: «وإنِّي والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلاَّ كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف: 18]»، فأنزل الله براءتها في آيات تتلى إلى يوم القيامة.

■ فضيلة أخرى لعائشة وهي تواضعها الجمّ، واحتقارها لنفسها في جنب الله عز وجل، على الرُّغم من علوِّ كعبها في الإسلام ورفعة مكانتها، ودليله من الحديث قولها: «وأنا والله حينئذ أعلم أنِّي بريئةٌ وأنَّ الله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظنُّ أن ينزل في شأني وحيٌ يتلى ولَشَأني كان أحقرَ في نفسي من أن يتكلَّم الله عز وجل فيَّ بأمر يتلى».

■ أنَّ الواجب على المؤمنين إحسان الظَّنِّ بإخوانهم لا سيما أهل الصَّلاح منهم، ودليله قوله تعالى: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: 12].

■ من لم يعلم بتفاصيل حادثة معيَّنة أو حالِ شخص ما؛ فالواجب عليه كفُّ لسانه وإمساكُ نفسه عن الخوض فيما لم يتبيَّن منه، وأن لا يشارك في انتشار الشَّائعات، حتَّى لا يكون له نصيب من إثم عواقبها، ودليله قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة النور].

■ الكفُّ عن الكلام والخوض في الشَّائعات وفي أعراض النَّاس بغير علم أو بيِّنة من الورع المحمود الَّذي ينجِّي صاحبَه، ودليله من الحديث، قول زينب بنت جحش رضي الله عنها: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلاَّ خيرًا؛ قالت عائشة: «...فعصمها الله بالورع».

■ فضيلة أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه وقوَّةُ إيمانه ويقينه، ووقوفُه عند حدود الله عزَّ وجلَّ، ودليله من الحديث قوله ـ لمَّا نزلت الآية ـ: والله إنِّي لأحبُّ أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح

النَّفقة الَّتي كان ينفق عليه وقال: «لا أنزعها منه أبدًا».

فسبحان الله العظيم!! تصوَّر لو أنَّ رجلاً فقيرًا تُنفق عليه بغير طلب منه، إحسانًا منك إليه،لا تريد منه جزاءً ولا شكورًا، ثمَّ يتكلَّم في عرض ابنتك ويتَّهمها بشيءٍ عظيم، وأيُّ شيء؟ بفاحشة الزِّنى! ثمَّ يقال لك: استمرَّ في النَّفقة عليه، أكان أحدُنا يفعل ذلك؟! ولكنَّه الإيمان الَّذي وقر في قلب هذا الرَّجل حتَّى سمِّي صدِّيقًا.

فتبًّا لقوم اتَّخذوا سبَّه دينًا يتديَّنون به، وشعارًا يتميَّزون به، كيف يكون ذلك في رجلٍ «نطقت بفضله الآيات والأخبار، واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار، فيا مُبغضيه في قلوبكم من ذِكره نار، كلَّما تُليت فضائله علا عليهم الصَّغار؛ أتُرى لم يسمع الرَّوافض الكفَّار ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: 40].

دُعي إلى الإسلام فما تلعثم ولا أبى، وسار على المحجَّة فما زلَّ ولا كبا، وصبر في مدَّته من مدى العدى على وقع الشَّبا[5]، وأكثر في الإنفاق فما قلَّل حتَّى تخلَّل بالعبا[6]، تالله لقد زاد على السَّبك في كلِّ دينار دينار ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: 40].

من كان قرين النَّبيِّ ﷺ في شبابه؟ من ذا الَّذي سبق إلى الإيمان من أصحابه؟ من الَّذي أفتى بحضرته سريعًا في جوابه؟ من أوَّل من صلَّى معه؟ ومن آخر من صلَّى به؟ من الَّذي ضاجعه بعد الموت في ترابه؟ فاعرفوا حقَّ الجار.

نهض يوم الرِّدَّة بفهم واستيقاظ، وأبان من نصِّ الكتاب معنى دقَّ عن حديد الألحاظ، فالمحبُّ يفرح بفضائله والمُبغض يغتاظ، حسرةُ الرَّافضيِّ أن يفرَّ من مجلس ذِكره، ولكن أين الفرار؟

كم وقى الرَّسولَ ﷺ بالمال والنَّفس، وكان أخصَّ به في حياته وهو ضجيعه في الرَّمس[7]، فضائله جليَّة وهي خليَّة عن اللَّبس؛ يا عجبًا! من يغطِّي عين ضوءِ الشَّمس في نصف النَّهار.

لقد دخلا غارًا لا يَسكنه لابث، فاستوحش الصِّدِّيق من خوف الحوادث، فقال الرَّسول ما ظنُّك باثنين والله الثَّالث، فنزلت السَّكينة فارتفع خوفُ الحادث، فزال القلق وطاب عَيش الماكث، فقام مؤذِّن النَّصر ينادي على رؤوس منائر الأمصار: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: 40].

حبُّه والله رأسُ الحنيفيَّة، وبغضُه يدلُّ على خبث الطَّويَّة، فهو خير الصَّحابة والقرابة، والحجَّةُ على ذلك قويَّة، لولا صحَّةُ إمامته ما قبِل ابن الحنفيَّة؛ مهلاً مهلاً، فإنَّ دم الرَّوافض قد فار.

والله ما أحببناه لهوانا، ولا نعتقد في غيره هوانا، ولكن أخذنا بقول عليٍّ رضي الله عنه وكفانا: «رضيَك رسول الله لديننا، أفلا نرضاك لدُنيانا»، تالله لقد أخذتَ من الرَّوافض بالثَّار.

تالله! لقد وجب حقُّ الصِّدِّيق علينا، فنحن نقضي بمدائحه ونقرُّ بما نقرُّ به من السَّنى[8] عينا، فمن كان رافضيًّا فلا يعد إلينا، ولْيقل: لي أعذار»[9].

■ ■ ■

وبعدُ، فينبغي التَّنبيه على أنَّ الواجبَ ذكرُ جميع الصَّحابة بالخير والكفُّ عمَّا شجر بينهم، فإنَّ لهم من شرف الصُّحبة والنُّصرة وشهود المغازي وصدقِ الإيمان ونشرِ الدِّين وجبال الحسنات ما يَذهبُ بحرُه بالزَّبد جفاءً، رضي الله عنهم أجمعين، وما تقدَّم ذِكره من استنباط الفوائد والأحكام ممَّا وقع بينهم؛ لا يوجب تنزيلَ هذه الأحكام عليهم ولا التَّنقُّص من أقدارهم، والحطَّ من أعيانهم؛ وإنَّما المراد العِبرة والعظة، وما زال هذا الأمر صنيعَ العلماء المتقدِّمين والمتأخِّرين، وما نحن إلاَّ من علمهم نعرِف، ومن بحرهم نغرِف.

هذا ما تيسَّر لي جمعُه، وسهُل علي إخراجه، وفي الحديث فوائد ودُرَر، تذكر في مناسبات أُخَر، وأسأل الله لي ولكم الإخلاص في النَّوافل والفرائض، وأن يصرف عن المسلمين كيدَ الرَّوافض، وأن يرزقنا حبَّ الصَّحابة وآل البيت الأطهار، ويدخلَنا الجنَّة ويجيرَنا من النَّار.

(5) الشَّبا: جمع شباة: طرف السَّيف وحدُّه. [«لسان العرب» (مادَّة: شبا)].

(6) العبا: أصلها العباء، أي الكساء، والمراد حتَّى أتاه الموت فجعل في الكفن.

(7) الرِّمس: القبر.

(8) السَّنى: ضوء النَّار والبرق.

(9) من «الفوائد» لابن القيم (84 ـ 85).

التقوى

حقيقتها، وأهميتها وثمراتها

عبد الغني عوسات

تقوى الله أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقايةً تقيه منه، ولا يتأتَّى له ذلك إلاَّ بفعل الأوامر واجتناب النَّواهي، وحقيقة ذلك كلّه في العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به إيمانًا بأمره وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالنَّهي وخوفًا من وعيده

إنَّ التَّقوى رأس كلِّ شيءٍ وجماع كلِّ خير، وهي غاية الدِّين ووصيَّة الله تعالى للنَّاس أجمعين؛ الأوَّلين منهم والآخرين، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 131].

وهي أعظم وصيَّةٍ للعباد وخير زاد ليوم المعاد، وهي وصيَّة النَّبيِّ ﷺ لأمَّته، قال ﷺ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ...**»[1] فقد كان ﷺ كثيرًا ما يوصي بها في خطبه ومواعظه.

وكان إذا بعث أميرًا على سريَّة أوصاه في خاصَّة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرًا[2].

ولم يزل السَّلف الصَّالح يتواصون بها كالخلفاء الرَّاشدين والأمراء والصَّالحين، فكان تمسُّكهم بها متينًا، وتواصيهم بها مبينًا، واستصحابهم إيَّاها معينًا، وكانوا يجعلونها نصب أعينهم، وميزان أقوالهم وأفعالهم في كلِّ مجالسهم ومواقفهم.

«كتب رجلٌ من السَّلف إلى أخٍ له: أوصيك بتقوى الله؛ فإنَّها أكرم ما أسررت، وأزين ما أظهرت، وأفضل ما ادَّخرت، أعاننا الله وإيَّاك عليها، وأوجب لنا ولك ثوابها»[3].

لذلك كانت وصيَّته ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه بتقوى الله وجعلها مستغرقةً لكلِّ أحواله ومستحضرة في كلِّ شؤونه فقال له ﷺ: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ**» أي: اتَّقه في خلوتك وجلوتك، في منشطك ومكرهك، وحلِّك وترحالك، وفي رضاك وغضبك، وشدَّتك ورخائك، فهي دليل الحذر من الشَّرِّ، وسبيل الظَّفر بالخير.

ذكر الحافظ ابن رجب رحمه الله نقولاً كثيرة في كتابه «جامع العلوم والحكم» تُظهر عنايةَ السَّلف بالتَّقوى ورعايتَهم لها وروايتَهم فيها ودرايتَهم بها.



حقيقتها

وممَّا روي وذكر عنهم في تعريف حقيقة التَّقوى وخواصِّها وبيان أصلها وحدِّها ـ وهي كثيرة ـ[4]:

قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «ليس تقوى الله بصيام النَّهار ولا بقيام الليل والتَّخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله تركُ ما حرَّم الله، وأداء ما افترض الله».

وعلى هذا تكون تقوى الله أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقايةً تقيه منه، ولا يتأتَّى له ذلك إلاَّ بفعل

(1) جزء من حديث العرباض بن سارية السُّلمي، رواه أبو داود (4607)، والتِّرمذي (2676)، وقال: «حديث حسن صحيح».

(2) أخرجه مسلم (1731) من حديث بريدة رضي الله عنه.

(3) راجع «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (158).

(4) انظر «جامع العلوم والحكم» (168. 171).

الأوامر واجتناب النَّواهي، وحقيقة ذلك كلِّه في العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به إيمانًا بأمره وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالنَّهي وخوفًا من وعيده»[5].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «المتَّقون اتَّقوا ما حرَّم الله عليهم وأدَّوا ما افترض الله عليهم»[6].



وممَّا قيل كذلك في حقيقة التَّقوى، ما قاله طلق بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ - لمَّا كانت فتنة ابن الأشعث -: «إذا وقعت الفتنة فادفعوها بالتَّقوى؛ قالوا: وما التَّقوى؟ قال: أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله تخاف عقاب الله»[7].

(5) «الرِّسالة التَّبوكيَّة» لابن القيِّم (43).
(6) انظر «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (170).
(7) أخرجه ابن المبارك في «الزُّهد» (1054)، وهنَّاد بن السري في «الزُّهد» (522)، وابن أبي شيبة في «المصنَّف» (32/11)، وأبو نعيم في «الحلية» (64/3).

قال ابن القيِّم: «وهذا من أحسن ما قيل في حدِّ التَّقوى»[8].

وقال الحافظ الذَّهبي معلِّقًا على قول طلق في التَّقوى: «أبدع وأوجز، فلا تقوى إلاَّ بعمل، ولا عمل إلاَّ بتروٍّ من العلم والاتِّباع، ولا ينفع ذلك إلاَّ بالإخلاص لله، لا ليقال فلان تاركٌ للمعاصي بنور الفقه، إذ المعاصي يفتقر اجتنابها إلى معرفتها، ويكون التَّرك خوفًا من الله، لا ليمدح بتركها؛ فمن داوم على هذه الوصيَّة فقد فاز»[9].

وقال ابن القيِّم كذلك: «فإنَّ كلَّ عملٍ لابدَّ له من مبدإ وغاية فلا يكون العمل طاعةً وقربةً حتَّى يكون مصدره عن الإيمان، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض لا العادة ولا الهوى، ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك، بل لابدَّ أن يكون مبدؤه محضَ الإيمان وغايتُه ثوابَ الله وابتغاء مرضاته وهو الاحتساب»[10].

ومن خلال هذا التَّعريف والبيان لحقيقة التَّقوى تظهر عظمة شأنها في حياة الإنسان وعلوُّ منزلتها عند الواحد الدَّيَّان، وأنَّها الميزان لتفاضل النَّاس كما نصَّ القرآن، ولذلك كان مقرُّها في الإنسان القلب، الَّذي هو أعظم عضو في الإنسان، والَّذي عليه مدار صلاح سائر الأعضاء والأركان حيث بصلاحه يصلح الجسد كلُّه، وبفساده يفسد الجسد كلُّه كما جاء من قوله ﷺ: «**أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ**»[11].

(8) «الرِّسالة التَّبوكيَّة» (45).
(9) «سير أعلام النُّبلاء» (601/4).
(10) «الرِّسالة التَّبوكيَّة» (45).
(11) «صحيح البخاري» (52) و«صحيح مسلم» (1599).

وأشار ﷺ لـمَّا تحدَّث عن التَّقوى إلى صدره ثلاث مرَّات[12]، ويؤيِّد ذلك ويؤكِّده قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢﴾ [سُورَةُ الحَجِّ].

وقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»[13].

وإذا كان محلُّ التَّقوى القلب فإنَّه لا يطَّلع على حقيقتها إلاَّ الله تعالى الَّذي هو علاَّم الغيوب، قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢﴾ [سُورَةُ النَّجْمِ].

وإنَّ التَّقوى من أعظم المطالب وأكرم المكاسب، وصاحبها في أعلى المراتب، وهي ذات أهمِّيَّة عظمى في حياة العبد المؤمن.

أهميتها

وإنَّ ممَّا يدلُّ على أهمِّيتها ويؤيِّد القول بعظم قدرها وعموم أثرها ما يلي:

■ كونها - التَّقوى - وُسمت بكلمة التَّوحيد والإخلاص وسمِّيت بها: قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۝٢٦﴾ [سُورَةُ الفَتْحِ]، قال ابن القيِّم: «وكلمة التَّقوى هي الكلمة الَّتي يتَّقى الله بها، وأعلى أنواع هذه الكلمة هي قول: «لا إله إلاَّ الله»، ثمَّ كلُّ كلمة يُتَّقى الله بها بعدها فهي من كلمة التَّقوى»[14].

(12) أخرجه مسلم (2564).
(13) «صحيح مسلم» (2564).
(14) انظر: «الضَّوء المنير على التَّفسير» (403/5)، «شفاء العليل» (ص60).



وقال مجاهد بن جبر: «إنَّ كلمة التَّقوى الإخلاص»[15].

■ وهي كذلك ميزان التَّفاضل بين النَّاس وعنوان أهل الإكرام والإعزاز، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [سُورَةُ الحُجُرَاتِ]، وما في هذه الآية يدلُّ على أنَّ التَّقوى هي المراعى عند الله وعند رسوله ﷺ دون الحسب والنَّسب.

■ هي ميزان الأعمال وميزة حسنها وبرهان قبولها وعنوانها وشعار أهلها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [سُورَةُ المَائِدَةِ]، قال ابن القيِّم رحمه الله: «وأحسن ما قيل في تفسير الآية: أنَّه إنَّما يتقبَّل الله عمل من اتَّقاه في هذا العمل، وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره، وهذا إنَّما يحصل بالعلم، وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه عُلِم أنَّه أشرف شيءٍ وأجلُّه وأفضله»[16].

■ وهي وصيَّة الأنبياء لأقوامهم، فكانت محتوى بيانهم ومقتضى خطابهم، فما من نبيٍّ أرسله الله إلاَّ أوصى قومه بتقوى الله تعالى، وأكَّد في الوصيَّة لما لها من الأهمِّيَّة.

فبها أوصى نوحٌ عليه السلام قومه، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ]، وعليها قامت ودامت وصيَّةُ غيره من الأنبياء والمرسلين، قال تعالى عنهم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ]، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ]، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ]، وهكذا استمرَّت الوصيَّة بها ـ من قبل الأنبياء ـ جميعهم، وزادها النَّبيُّ محمَّدٌ ﷺ بيانًا لعظيم شأنها وتأكيدًا على أهمِّيتها.

■ وممَّا يدلُّ كذلك على أهمِّيَّة التَّقوى أمر الله لعباده عامَّةً بالتَّحلِّي بها وأكَّد ذلك للمؤمنين خاصَّة حيث أمرهم بتقواه حقَّ تقاته، وممَّا جاء في ذلك من الأدلَّة قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [سُورَةُ المُؤْمِنُونَ]، وقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [سُورَةُ الزُّمَرِ]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ].

وكانت وصيَّةً عظيمة الشَّأن والأهمِّيَّة لما أوصى الله تعالى بها كلَّ البريَّة، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النِّسَاءِ: 131].

■ وتتجلَّى كذلك أهمِّيتها وعظمتها لمَّا أمر الله تعالى خلقه بعبادته لتحقيقها، فالتَّقوى ثمرةٌ للعبادة، والعبادةُ وسيلةٌ للتَّقوى، وممَّا جاء في ذلك من البيان ما ورد ذكره في القرآن من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ]، وقوله تعالى في آية الصِّيام وأنَّه من أكبر أسباب التَّقوى حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ].

وكذا أوصى الله تعالى بالتزام أمره وعدم معصيته والسَّير في طريقه وعدم الحيدة عنه، وبذلك يحقِّق العبد التَّقوى، وهي مقتضى تلك الوصيَّة حيث قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [سُورَةُ الأَنْعَامِ].

ثمارها

إنَّ الله تعالى أكرم أهل التَّقوى فأسبغ عليهم ثمارًا وفضائل كثيرة وعظيمةً بسبب التَّقوى، وجعل فوائدها ومنافعها كثيرةً وعميمةً في حياتهم الدُّنيا، وكذا في الآخرة.

وهذه الثِّمار كثيرة لا تحصى وغزيرة لا تستقصى، فهي أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر، فنذكر منها ما حضر

(15) «تفسير القرطبي» (16/691)، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ بقول شهادة أن لا إله إلاَّ الله وهي رأس كلِّ تقوى.

(16) «مفتاح دار السَّعادة» (1/82).

على سبيل الذِّكر لا الحصر، تذكرةً لكلِّ مدَّكر ومعتبر، ونذكر من ثمرات التَّقوى ما يلي:

■ أنَّ صاحبها يوفِّقه الله تعالى لتحصيل العلم النَّافع، ويجعل له بسببها نورًا يهتدي به في ظلمات الجهل والضَّلال، ويرزقه بصيرةً وفرقانًا يميِّز به بين الحقِّ والباطل، والخير والشَّرِّ، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾[17] [سُورَةُ الحَدِيد]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال : 29].

■ أنَّ الله تعالى يجعل للمتَّقي من كلِّ همٍّ فرجًا، ومن كلِّ ضيقٍ سعةً ومخرجًا، ومن كلِّ بلاءٍ عاقبة، ومنها أيضًا تحصيل الرِّزق له، وتيسير الأمور عليه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[18] [سُورَةُ الطَّلَاق]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [سُورَةُ الطَّلَاق]، قال الرَّبيع بن خثيم: «يجعل له مخرجًا من كلِّ ما ضاق على النَّاس».

■ تكفير سيِّئات المتَّقي، وتعظيم أجوره، ومضاعفة حسناته ولو مع يسر عمله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ [سُورَةُ الطَّلَاق].

قال ابن كثير: «أي يذهب عنه المحذور، ويجزل له الثَّواب على العمل اليسير...».

■ نيل ولاية الله تعالى الَّتي لا تنال إلاَّ بطاعته وخشيته سبحانه، وتحصل له بها البشرى في الدُّنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [سُورَةُ يُونُس].

فكلُّ من كان تقيًّا كان لله وليًّا، ومن كان عن التَّقوى متخلِّيًا لم يكن لله وليًّا ولو كان بالدَّعوى متحلِّيًا، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سُورَةُ الأَنفَال].

■ بالتَّقوى ينال العبد محبَّة الله، ويكون الله معه، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [سُورَةُ التَّوبَة]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَة].

■ نجاة العبد من النَّار بعد الورود عليها يوم القيامة بحيث يرد التَّقيُّ عليها ورودًا ينجو به من عذابها، بينما الظَّالمون يردونها ورودًا يصيرون جثيًّا فيها بسبب الظُّلم، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [سُورَةُ مَرْيَم].

■ أنَّها تكون سببَ كونه من ورثة جنَّة النَّعيم، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [سُورَةُ مَرْيَم].

■ حصول العاقبة الحسنة والطَّيِّبة لهم في الدُّنيا والآخرة: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [سُورَةُ القَصَص].

وإنَّ ثمار التَّقوى كثيرة وغزيرة، ومتنوِّعة متعدِّية، لا يمكن ذكرها وحصرها في هذا المقال.

وإنَّما ذكرنا بعضها على سبيل المثال حتَّى يحسن بها الامتثال فيسعد صاحبها في الحال والمآل، والله نسأل أن يرزقنا التَّقوى في كلِّ الأحوال.

(17) قال ابن القيِّم رحمه الله في تفسير هذه الآية: «ضمن الله تعالى لهم بالتَّقوى ثلاثة أمور:
أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته؛ نصيبًا في الدُّنيا، ونصيبًا في الآخرة، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين.
الثَّاني: أعطاهم نورًا يمشون به في الظُّلمات.
الثَّالث: مغفرة ذنوبهم، وهذه غاية التَّيسير، فقد جعل الله تعالى التَّقوى سببًا لكلِّ يسر، وترك التَّقوى سببًا لكلِّ عسر» راجع «الضَّوء المنير على التَّفسير» (625/5).

(18) لابن الفاكهاني رسالة لطيفة جمع فيها بعض أقوال المفسِّرين في هذه الآية، ووسمها بـ: «الغاية القصوى في الكلام على آية التَّقوى».



فتاوى شرعية

أ. د. محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

في حكم صلاة الجنازة في أوقات الكراهة

السُّؤال:

جاء في حديث عقبةَ بنِ عامرٍ رضي الله عنه أنَّه قال: «**ثَلاَثُ سَاعَاتٍ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَنْهَانَا أَنْ نُصَلِّيَ فِيهِنَّ أَوْ أَنْ نَقْبُرَ فِيهِنَّ مَوْتَانَا: حِينَ تَطْلُعُ الشَّمْسُ بَازِغَةً حَتَّى تَرْتَفِعَ، وَحِينَ يَقُومُ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ حَتَّى تَمِيلَ الشَّمْسُ، وَحِينَ تَضَيَّفُ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ حَتَّى تَغْرُبَ**»[1].

فهل تصحُّ صلاةُ الجنازةِ في هذه الأوقات؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَنْ أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصَحْبِه وإخوانِه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فعمومُ النَّهيِ عنِ الصَّلاةِ في هذا الحديثِ وغيرِه مِنَ الأحاديثِ النَّاهيةِ عنِ الصَّلاةِ في أوقاتِ الكراهةِ محمولٌ على صلاةِ التَّطوُّعِ الَّتي لا سببَ لها، أمَّا الصَّلواتُ ذواتُ الأسبابِ كقضاءِ الفرائضِ أو فوائتِ النَّفلِ كسنَّةِ الفجرِ بعد الفجرِ وسنَّةِ الظُّهرِ بعد العصرِ، وكذا تحيَّةِ المسجدِ وصلاةِ الكسوفِ وركعتَيِ الطَّوافِ وغيرِها مِن ذواتِ الأسبابِ، فإنَّها خُصَّتْ مِن عمومِ النَّهيِ عنِ الصَّلاةِ لأدلَّةٍ دلَّتْ عليها، مثلُ قولِه ﷺ: «**مَنْ نَسِيَ صَلاَةً أَوْ نَامَ عَنْهَا فَكَفَّارَتُهَا أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذَكَرَهَا**»[2]، وَقَوْلِه ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ فَلاَ يَجْلِسْ حَتَّى يَرْكَعَ رَكْعَتَيْنِ**»[3]، وقولِه ﷺ: «**يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لاَ تَمْنَعُوا أَحَدًا طَافَ بِهَذَا البَيْتِ وَصَلَّى أَيَّةَ سَاعَةٍ شَاءَ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ**»[4]، ونحوِها مِنَ الأدلَّة.

وصلاةُ الجنازةِ معدودةٌ مِن ذواتِ الأسبابِ، والإجماعُ منعقدٌ على جوازِ أدائها في كلِّ الأوقاتِ بما في ذلك بعد الصُّبحِ والعصرِ.

قال ابنُ قدامةَ رحمه الله: «قال ابنُ المنذرِ: إجماعُ المسلمين في الصَّلاةِ على الجنازةِ بعد العصرِ والصُّبحِ، وأمَّا الصَّلاةُ عليها في الأوقاتِ الثَّلاثةِ الَّتي في حديثِ عقبةَ بنِ عامرٍ فلا يجوز»[5].

قلتُ: وإنَّما الكراهةُ فيما إذا كان يتحرَّى ـ عمدًا ـ صلاتَها في الأوقاتِ الثَّلاثةِ، بخلافِ ما إذا حصل اتِّفاقًا؛ فلا كراهةَ في أدائها في عمومِ الأوقاتِ[6]، قال ابنُ تيميَّةَ رحمه الله في مَعْرِضِ بيانِ حديثِ عقبةَ بنِ عامرٍ رضي الله عنه: «صلاةُ الجنازةِ لا تُكْرَهُ في هذا الوقتِ بالإجماعِ، وإنَّما معناه تعمُّدُ تأخيرِ الدَّفنِ إلى هذه الأوقاتِ كما يُكْرَهُ تعمُّدُ تأخيرِ صلاةِ العصرِ إلى اصفرارِ الشَّمسِ بلا عذرٍ، فأمَّا إذا وقع الدَّفنُ في هذه الأوقاتِ بلا تعمُّدٍ فلا يُكْرَهُ»[7]، والعلمُ عند الله تعالى.

(1) أخرجه مسلم (831).
(2) أخرجه البخاري (597)، ومسلم (684) واللَّفظ له، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(3) أخرجه البخاري (1167)، ومسلم (714)، من حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه.
(4) أخرجه التِّرمذي (868)، والنَّسائي (585)، من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه، والحديث صحَّحه الألبانيُّ في «الإرواء» (481).
(5) «المغني» لابن قدامة (110/2).
(6) «المجموع» للنَّووي (213/5).
(7) «الاختيارات الفقهيَّة من فتاوى ابن تيميَّة» للبعليِّ (82).

في حكم تأجيل التقابض في صرف العملات

السُّؤال:

هل يجوز أن أتعاملَ مع بعضِ الزّبائنِ بصرفِ النُّقودِ حيث يُعطونني (1000دج) ولا يُوجَد عندي سوى (750دج) في ذلك الوقت، فيقول لي الزّبونُ: «هاتِ ما عندك من مالٍ، والباقي أعود إليه قريبًا أو بعد حينٍ».

فهل تجوز مثلُ هذه المعاملةِ؟

الجواب:

استلامُ بعضِ العُملةِ وتأجيلُ البعضِ الآخَرِ بعد الافتراقِ ولو بزمنٍ يسيرٍ لا يجوز ـ شرعًا ـ لانتفاءِ التَّقابُضِ في مجلسِ العقد، وهو شرطٌ في عمليَّةِ الصَّرفِ، والإخلالُ به يُصيِّر العقدَ ربويًّا منْ رِبَا البيوعِ المحرَّم بنصِّ قوله ﷺ: «**وَلاَ تَبِيعُوا مِنْهَا غَائِبًا بِنَاجِزٍ**»[8]، وقوله ﷺ: «**...مِثْلاً بِمِثْلٍ، سَوَاءً بِسَوَاءٍ، يَدًا بِيَدٍ، فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الأَصْنَافُ فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ**»[9]، ولقوله ﷺ: «**الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ رِبًا إِلاَّ هَاءَ وَهَاءَ**»[10]، لذلك لا يجوز للمتصارِفَيْن أن يتفرَّقا إلاَّ بعد أن يستلمَ كلُّ واحدٍ منهما مبلغَ الصَّرفِ كاملاً، والعلمُ عند الله تعالى.

(8) أخرجه البخاري (2177)، ومسلم (1584)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(9) أخرجه مسلم (1587)، من حديث عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه.
(10) أخرجه البخاري (2134)، من حديث عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (1586) بلفظ: «**الوَرِقُ بِالذَّهَبِ رِبًا إِلاَّ هَاءَ وَهَاءَ**».



في التَّداوي بسمِّ النَّحلة

السُّؤال:

هل يجوز التَّداوي بسُمِّ النَّحلةِ علمًا أنَّ العلاجَ بها يؤدِّي إلى قتلِها، وقد وردَ النَّهيُ النَّبويُّ عن قتلِ النَّحلِ؟

وجزاكمُ اللهُ خيرًا.

الجواب:

المقامُ يقتضي بيانَ حكمِ التَّداوي بالسُّمِّ عمومًا، وبسمِّ النَّحلةِ خصوصًا لمكانِ النَّهي عن قتلها.

فإذا أثبتتِ التَّجارِبُ أنَّ التَّداوِي بالسُّمِّ عمومًا له فعاليَّتُه ونجاعتُه في علاجِ المرض، وكانت الحاجةُ إليه مُلحَّةً، وغلبتِ السَّلامةُ من أثَرِه، فإنَّه يجوز التَّداوي به على أصحِّ أقوالِ العلماء؛ عملاً بأعلى المصلحتين، ودفعًا لأهونِ الشَّرَّين، وهو مذهبُ جمهورِ العلماء[11].

وسُمُّ النَّحلةِ ـ وإن لم يكن مُضرًّا أو قاتلاً في جملته ـ إلاَّ أنَّ العلاجَ به ـ في بعضِ الأحوال ـ قد يَضُرُّ بمَن لهم حساسيَّةٌ للنَّحلِ، وكذا مرضى القلبِ والشَّرايين، ومرضى القصورِ الكُلَوِيِّ وتشمُّعِ الكبدِ، وقد يَضُرُّ ـ أيضًا ـ إذا ما زِيدَ عن حدِّه المعيَّنِ.

والمعلومُ أنَّ التَّداويَ بالسُّمِّ عمومًا إن كان يؤدِّي إلى الهلاك كليًّا أو غالبًا؛ فإنَّه يُمْنَع منه لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195]، وقوله ﷺ: «**وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا**»[12].

هذا؛ وقد ورد النَّهيُ عن قتلِ النَّحلة في حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ: النَّمْلَةِ وَالنَّحْلَةِ وَالهُدْهُدِ وَالصُّرَدِ»[13]، وذلك لِمَا في قتلها منْ

(11) انظر: «الأم» للشَّافعي (3/115)، «المجموع» للنَّووي (9/37)، «كشَّاف القناع» للبهوتي (2/76)، «شرح الزُّرقاني على مختصر خليل» (3/27)، «حاشية الرَّوض المربع» للنَّجدي (3/8).
(12) أخرجه البخاري (5779)، ومسلم (109)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(13) أخرجه أحمد (3066)، وأبو داود (5267)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (2490).

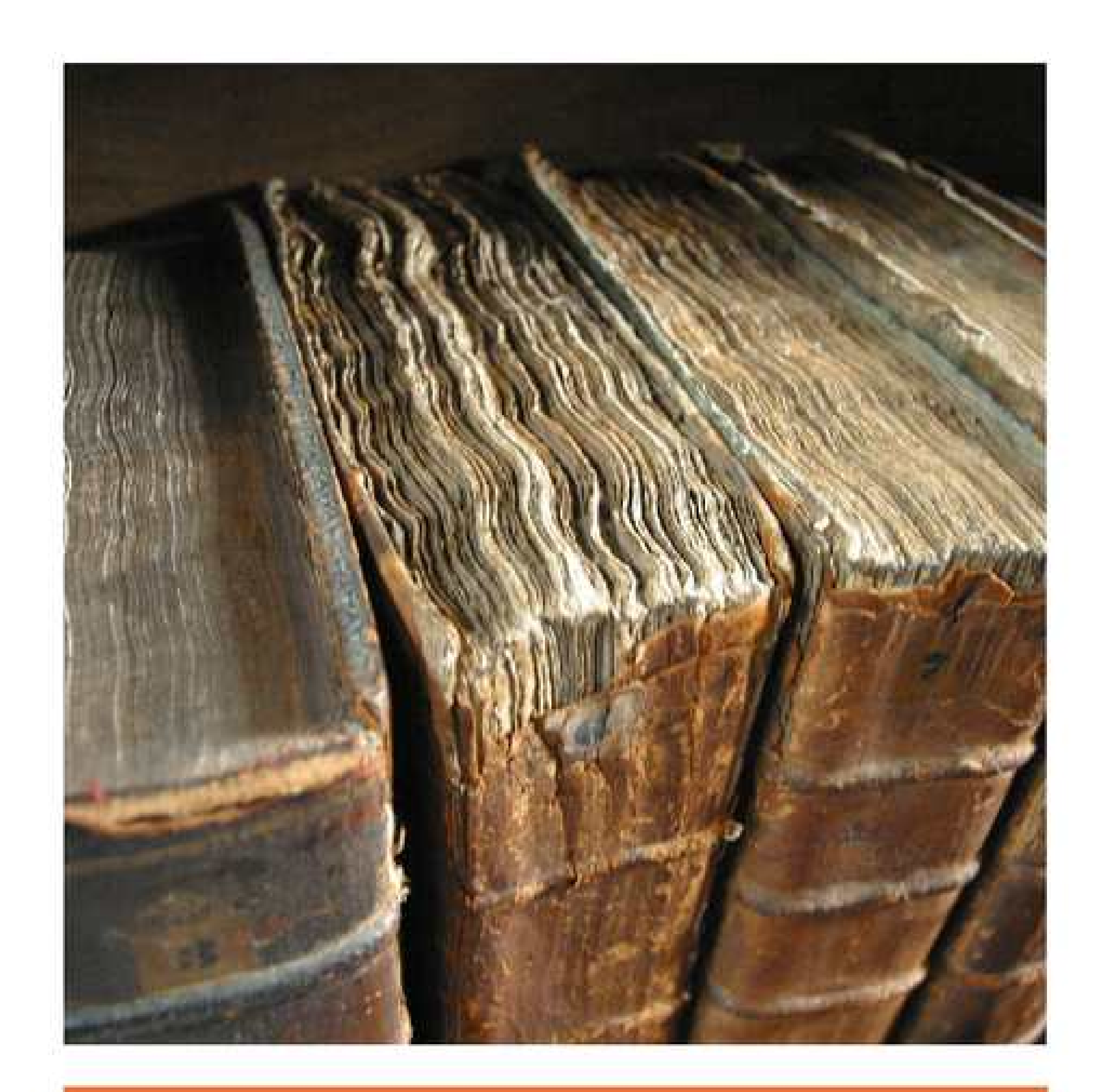
إضاعةِ مالٍ وحرمانِ خيرٍ كالعسلِ والشَّمعِ ونحوهما، وقتلُها بغيرِ وجهِ حقٍّ يندرج في الإفسادِ المَنْهيِّ عنه بعمومِ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة].

ولا يخفى أنَّ ما نهى الشَّرعُ عن قتله مشروطٌ بما إذا لم يَصْدُرْ منه أذىً أو ضررٌ، فإنْ حصل منه اعتداءٌ أو أذىً حلَّ قتلُه؛ لأنَّ الضَّررَ مَنْفيٌّ شرعًا وواجبٌ دفعُه أو إزالتُه؛ لقوله ﷺ: «**لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ**»(14)، ولحديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِجَهَازِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا ثُمَّ أَمَرَ بِبَيْتِهَا فَأُحْرِقَ بِالنَّارِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: فَهَلاَّ نَمْلَةً وَاحِدَةً**»(15)، وإنَّما عاتبه على كونه أخذ البريءَ بغيرِ البريءِ، وغيرُ البريءِ الَّذي لا يندفع أذاه وضررُه إلاَّ بالقتلِ يجوز قتلُه، ويخرج مِنَ النَّهي. أيضًا. ما لو ترتَّب على فرزِ العسلِ تحقُّقُ موتِ بعضِ النَّحلِ دون تعمُّدٍ؛ فهو قتلُ خطإٍ لعدمِ القصدِ إليه.

ويندرج. أيضًا. ضِمْنَ هذه المستثنَياتِ مِنَ النَّهيِ ما إذا ثبت أنَّ التَّداوِيَ بسُمِّ النَّحلةِ هو الوسيلةُ النَّاجعةُ الوحيدةُ لحفظِ النَّفسِ أو حفظِ بعضِ أعضاءِ البدنِ، ولم يُؤَدِّ العلاجُ به إلى أيَّةِ مَضَرَّةٍ أو تهلُكَةٍ مُحتمَلَةٍ بإشرافِ مختصٍّ أو مراقِبٍ طبِّيٍّ؛ فإنَّ الشَّريعةَ بقواعدِها العامَّةِ تقضي بجوازِ العلاجِ بسُمِّ النَّحلةِ ولو انتهى الأمرُ إلى موتِها للضَّرورةِ العلاجيَّةِ أوَّلاً، وعملاً بأخَفِّ الضَّررين وأَهْوَنِ المفسدتين، ولأنَّ مصلحةَ العافيةِ والسَّلامةِ أكمَلُ وأعظَمُ مِن اجتنابِ مفسدةِ المحرَّم، ونظيرُ هذه المسألةِ إنقاذُ حياةِ الحاملِ مِنَ الموتِ إذا لَزِمَ إسقاطُ جنينها ولو بعد نفخِ الرُّوحِ فيه. على أرجَحِ الأقوالِ وأَصَحِّها ـ، علمًا أنَّ هذه الأحكامَ يجب ضبطُها بقواعدِ الحاجةِ والضَّرورةِ، والعلمُ عند الله تعالى.

(14) أخرجه ابن ماجه (2340)، وأحمد (2865)؛ من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما. والحديث صحَّحه الألباني في «الإرواء» (3/408).

(15) أخرجه البخاري (3319)، ومسلم (2241)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



في حكم البيع بشرط الإعفاء من الضَّمان

السُّؤال:

أملك محلاًّ لبيع قطع غيارِ السَّيَّارات، منها قطعٌ كهربائيَّةٌ، وهذه في غالبِ الأحوالِ نشتريها مِنْ أصحابِ الجملة بدونِ ضمانٍ؛ وذلك لأنَّ هذه القطعَ جدُّ حسَّاسة، حيث إنَّها تتوقَّف عن العملِ لمجرَّدِ خطإٍ صغيرٍ في تركيبها، خاصَّةً إذا ركَّبها ميكانيكيٌّ ليس له خبرةٌ جيِّدةٌ، كذلك تتوقَّف إذا وقع خللٌ في غيارٍ آخَرَ له صلةٌ به، فهل يجوز بيعُها بدونِ ضمانٍ؟ علمًا أنَّ الزَّبونَ يشتريها مضطرًّا ومكرهًا على مثلِ هذا البيعِ، وجزاكم اللهُ خيرًا.

الجواب:

إذا اشترط البائعُ على المشتري إعفاءَه مِنْ ضمانِ العيبِ وبراءتَه من مسؤوليَّته عمَّا يمكن أن يظهرَ مِنْ عيوبٍ في المبيع، وبناءً على سلامةِ المبيعِ الظَّاهرةِ قَبِلَ المشتري بهذا الشَّرط، ثمَّ ظهر فيه عيبٌ قديمٌ معتبرٌ سابقٌ للبيع قبل انتقالِ الملكيَّة إلى المشتري أو عند انتقالها كحدٍّ أقصى، فإنْ كان البائعُ سيِّئَ النِّيَّةِ يعلم بالعيبِ ويُخفيه فلا يصحُّ شرطُ البراءةِ مِنْ عيبٍ عَلِمَه،

ويبقى الضَّمانُ على عهدةِ البائع في ردِّ قيمةِ المبيع؛ لأنَّه مدلِّسٌ يدخل تحت الذَّمِّ والنَّهي الوارد في قوله ﷺ: «**المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِم وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِم بَاعَ مِنْ أَخِيه بَيْعًا فِيهِ عَيْبٌ إِلاَّ بَيَّنَهُ لَهُ**»[16]، وفي قوله ﷺ: «**مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا**»[17]، وعليه فلا يسقط عنه الضَّمانُ إلاَّ إذا أعفاه المشتري منه، وبهذا قال الجمهورُ، وهو مذهبُ مالك والشَّافعيِّ وروايةٌ عن أحمدَ[18]، خلافًا للأحناف فإنَّه يصحُّ البيعُ - عندهم - بشرطِ البراءةِ مِنْ كلِّ عيبٍ مطلقًا سواء كان البائعُ عالمًا بالعيب أو جاهلاً به[19].

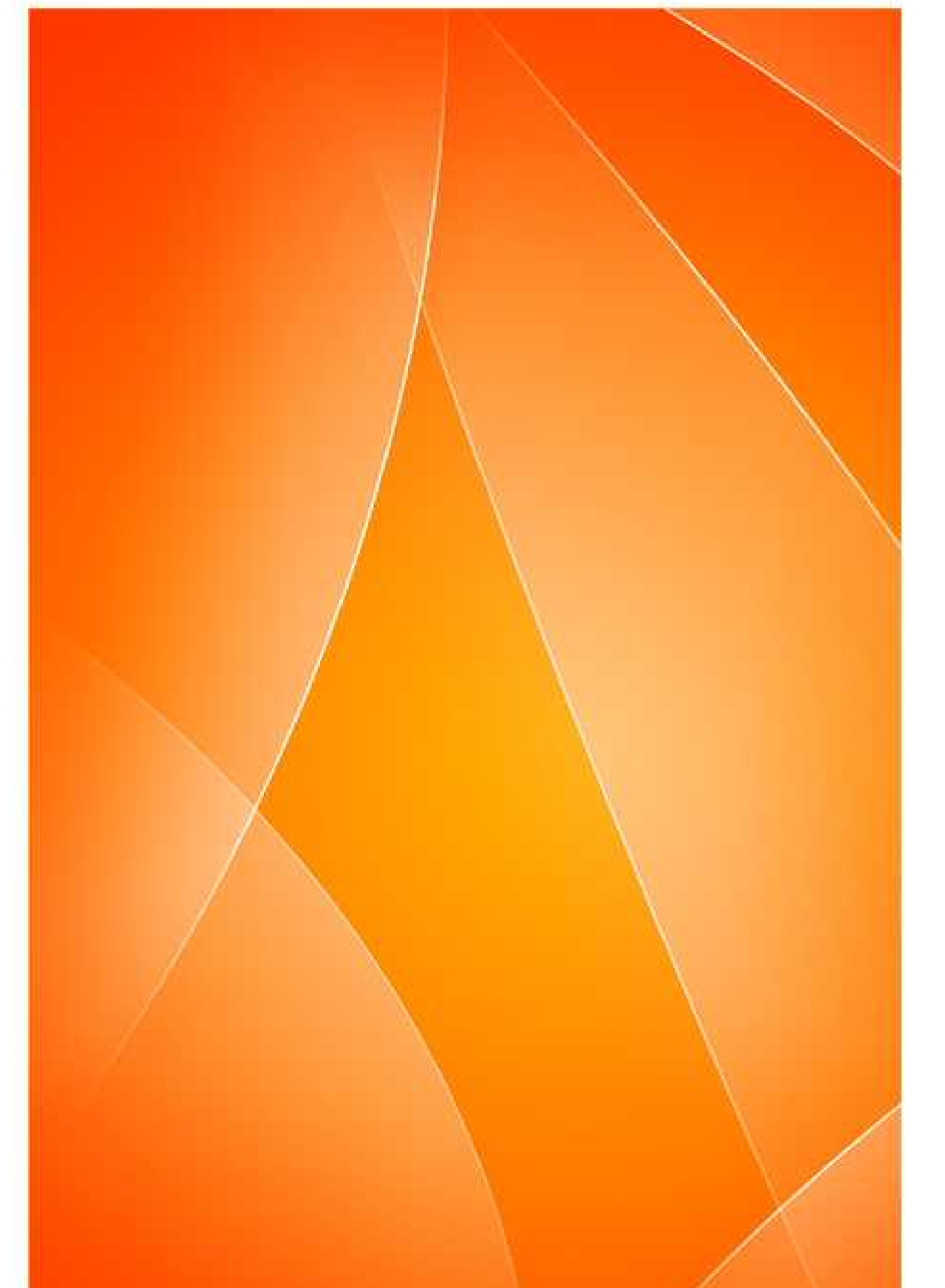
أمَّا إذا كان البائعُ حَسَنَ النِّيَّة، أي لا يعلم بالعيب فيصحُّ عند مالك وفي رواية عن أحمدَ، وهو قولُ الشَّافعيِّ في الحيوانِ خاصَّةً، لعدمِ ارتكابه الذَّمَّ، وتمهُّد عذره في ذلك، وبهذا قضى عثمانُ رضي الله عنه لِمَا روى مالكٌ وغيرُه أَنَّ «عَبْدَ اللهِ بنَ عُمَرَ بَاعَ غُلاَمًا لَهُ بِثَمَانمِائَةِ دِرْهَم، وَبَاعَهُ بِالبَرَاءَةِ، فَقَالَ الَّذِي ابْتَاعَهُ لِعَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ: «بِالغُلاَمِ دَاءٌ لَمْ تُسَمِّهِ لِي»، فَاخْتَصَمَا إِلَى عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: «بَاعَنِي عَبْدًا وَبِهِ دَاءٌ لَمْ يُسَمِّهِ»، وَقَالَ عَبْدُ اللهِ: «بِعْتُهُ بِالبَرَاءَةِ»، فَقَضَى عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ عَلَى عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ أَنْ يَحْلِفَ لَهُ لَقَدْ بَاعَهُ العَبْدَ وَمَا بِهِ دَاءٌ يَعْلَمُهُ، فَأَبَى عَبْدُ اللهِ أَنْ يَحْلِفَ وَارْتَجَعَ العَبْدَ، فَصَحَّ عِنْدَهُ فَبَاعَهُ عَبدُ اللهِ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَلْفٍ وَخَمْسِمائَةِ دِرْهَم»[20].

والصَّحيحُ المختارُ أنَّه لا تبرأ ذمَّةُ البائع مِنْ ضمانِ العيبِ مطلقًا وأنَّ شرْطَه يقع لاغيًا[21]، سواء عَلِمَ به البائعُ أو لم يعلمْ؛ لأنَّ خيارَ العيبِ ثبت شرعًا بمطلقِ العقد فلَمْ يسقطْ بشرطِ الإسقاط، ولأنَّ في شرطِ البراءةِ مِنْ كلِّ عيبٍ خطرًا وغررًا، وهما منتفيان شرعًا، وقد صحَّ نهيُه ﷺ عن الغرر[22]، وعليه فلا يصحُّ شرطُ البراءةِ مِنَ العيوب، وشرطُه لا يُفْسِدُ البيعَ، ويبقى للمشتري حقُّ الخيارِ بين الإمساكِ والرَّدِّ، أمَّا قضاءُ عثمانَ رضي الله عنه فقدْ خالفه ابنُ عُمَرَ رضي الله عنهما، وقولُ الصَّحابيِّ المخالَفِ لا يبقى حُجَّةً، وخاصَّةً إذا عارضته سنَّةٌ ثابتةٌ تنهى عن المخاطرةِ والغررِ.

وتقريرُ هذا الجواب إنَّما هو في العيبِ الخفيِّ أو غيرِ المعلوم مِنَ المشتري، أمَّا العيبُ الظَّاهرُ وقْتَ انتقالِ الملكيَّة فلا يخضع لضمانِ البائع إذا لم يَعْتَرِضْ عليه المشتري وقْتَ شرائه له، ومِنْ بابٍ أَوْلَى إذا كان المشتري يعلم بالعيبِ ورَضِيَه، واتَّفق مع البائع على إسقاطِ الضَّمانِ عليه، أو وقع العيبُ عند المشتري، فإنَّ البائعَ - في هذه الصُّوَرِ - يُعفى مِنْ مسؤوليَّة ردِّ قيمةِ المبيع.

علمًا أنَّ ضابطَ العيبِ المعتبَرِ هو ما تنقص بسببه قيمةُ المبيعِ عادةً أو تنقصُ به عينُه، ويرجع تقديرُه إلى عرفِ التُّجَّارِ المعتبَرين.

والعلمُ عند الله تعالى، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصَلَّى اللهُ على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، وسَلَّم تسليمًا.



(16) أخرجه ابن ماجه (2246)، والحاكم (10/2)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، والحديث صحَّحه الألباني في «الإرواء» (1321).

(17) أخرجه التِّرمذي (1315)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (102) بلفظ: «مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي».

(18) انظر: «المغني» لابن قدامة (197/4)، «حاشية الدُّسوقي» (123/4)، «القوانين الفقهيَّة» لابن جُزَي (256)، «مغني المحتاج» للشِّربيني (53/2)، «شرح الزَّركشي على مختصر الخرقي» (3/ 597).

(19) انظر: «بدائع الصَّنائع» للكاساني (256/5).

(20) أخرجه مالك (613/2)، والبيهقي في «السُّنن الكبرى» (328/5)، والأثر صحَّحه الألباني في «الإرواء» (263/8).

(21) انظر: «المغني» لابن قدامة (197/4).

(22) أخرجه مسلم (1513)، وأحمد (937) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

نابغةُ الأغواط...

العلاَّمة الشيخ أبو بكر الحاج عيسى

سمير سمراد

❖ اسمه ونسبه ومولده:

هو أبو بكر بن بلقاسم الحاج عيسى، ولد سنة (1331هـ - 1912م)، ببلدة «كوينين» من بلدات «وادي سوف»، بحكم وجود والده الشَّيخ بلقاسم من أعوان محاكم القضاء الشَّرعي بوادي سوف، هذا على رواية: الأستاذ الحسن فضلاء رَحِمَهُ اللهُ، والأستاذ مبروك زيد الخير، أمَّا الأستاذان: أحمد بن أبي زيد، وأحمد حمَّاني - رحمهما الله - فذكرا أنَّ مكان الميلاد هو «الأغواط»[1].

لم يلبث الشَّيخ بلقاسم أن عادَ إلى الأغواط بعد انتهاء مأموريَّته، وهكذا نشأ أبو بكر بهذه الواحة الجميلة، الواقعة بجنوب جبال «عمور»، وعلى «وادي مَزِي»، وسُكَّانُها من القبائل العربيَّة الصَّميمة.

❖ تعلُّمُه ودراستُهُ الأوَّليَّة:

دخل أبو بكر في طفولتِه الكتَّابَ على العادة الجارية، فتعلَّم القراءة والكتابة والقرآن على الشَّيخ ابن عزُّوز، كما حفظ بعض المتون العلميَّة وعيونًا من قصائد الشِّعر العربي، وتفتَّقت مواهبُهُ وشغف بالمطالعة وتحصيل المعارف وتوسيع المدارك، فكوَّن لنفسِه شيئًا فشيئًا حصيلةً مهمَّة، كانت بمثابة الأساس الَّذي انبنت عليه حياتُهُ العلميَّة فيما بعدُ، وكلَّل ذلك بأن ضَرَبَ بسهمٍ في اللُّغة الفرنسيَّة حيثُ أدخله أهله «المدرسة الفرنسيَّة».

❖ في مدرسة الإصلاح وتحتَ رعايةِ المصلحين:

في سنة (1922م) حلَّ بالأغواط بطلبٍ من أهلها الأستاذُ المُصلِحُ الأديب الكبير الشَّيخ السَّعيد الزَّاهريّ، ومكث مدرِّسًا بمدرسة عربيَّةٍ أسَّسها أعيانُ الأغواط والمتطلِّعون إلى نهضتها بنهضة أبنائها، نحوًا من سنتين - من أوَّل سنة (1922م) إلى آخر سنة (1923م)، ترك فيها أثرًا حسنًا في التَّلاميذ، وأَخَذَهُم بتربيةٍ حيَّةٍ مُثمِرَة، وهيَّأَ الجوَّ الحسن في المدرسة للشَّيخ العلاَّمة مبارك الميلي الَّذي خَلَفَهُ فيها، وأعدَّ له التَّلاميذ فوجدهم الشَّيخ مبارك كما يُريد[2].

وشرع العلاَّمة مبارك في وضع أسس النَّهضة العلميَّة الدِّينيَّة بالأغواط، وتمتين أركانها، بما كان يُلقيه من الدُّروس والنَّصائح والخطب في «المدرسة العربيَّة الحرَّة»، وفي المساجد، وفي اجتماعاته بالأهالي والأعيان، «وكان الشَّيخ أبو بكر من الآمِّين لهذه الدُّروس، وهو في زهرة شبابه، وبَدْءِ نضجه وإدراكه، وقد أعرض عن متابعة الدِّراسة بالمدارس الفرنسيَّة وتخصَّص للعربيَّة مع معرفته بالفرنسيَّة»[3].

❖ الدِّراسة الثَّانويَّة والطَّريقُ إلى العالميَّة:

«لازم أبو بكر دروسَ أستاذه الميلي وأبدى رغبته الطَّموحة واستعداده العظيم إلى العلم والتَّلقِّي، فاهتمَّ به الشَّيخ مبارك وقرَّبَهُ إليه وأحاطه بعناية خاصَّة»[4]، فكان أبو بكر من أصفيائه وأقرب تلامذته؛ أخذ عنه الفقه والنَّحو والبلاغة والتَّوحيد، «وكان لا يغيبُ عن درسٍ من دروسه الخاصَّة أو العامَّة، رغم كثافة البرنامج وتَكَدُّسِ المعارف، فهو يشرح «صحيح البخاري» و«قطر النَّدى» و«متن الآجرُّوميَّة»، ويُعرِّج على «رسالة ابن أبي زيد القيرواني»، مع دروسٍ في الأدب وأخرى في التَّفسير، فكوَّن جيلاً رياديًّا عالمًا، وكان التَّكوين متينًا مؤسَّسًا تأسيسًا أكاديميًّا دقيقًا، وأهمُّ ما رَسَّاهُ الشَّيخ مبارك في طلبته: الذَّوق الرَّفيع،

(1) أحمد بن أبي زيد قصيبة، وأحمد حمَّاني: «أبو بكر الحاج عيسى الأغواطي»، جريدة «النَّصر»، 15 ذو الحجَّة 1407هـ/28 يونيو 1987م، (4).

(2) محمَّد دبوز «نهضة الجزائر الحديثة» (3/255 - 257 و262 - 270).

(3) أحمد بن أبي زيد قصيبة وأحمد حمَّاني المصدر السَّابق.

(4) الحسن فضلاء: «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (2/113 - 117).

سير الأعلام

وتطعيم الثّقافة الشّرعيّة واللُّغويّة بالقطوف الأدبيّة والطّرائف الإبداعيّة الّتي تمخّضت عنها قرائح العباقرة من أدباء العصور الزّاهرة»[5].

ولمّا نما غرسُ الشّيخ مبارك في الأغواط، ورأى أنّ استعداد تلامذته الّذين كوّنهم وأعدّهم، لا يُروِّيه إلاّ الدّراسة الجامعيّة العالية، أشار على أنبغ تلاميذه: الشّيخ أبو بكر وإخوانه بالسّفر إلى تونس، والانخراط في طلبة «جامع الزّيتونة» المعمور آنذاك، وهكذا يمّموا شطر الجامعة الزّيتونيّة ليُشاركوا شيخهم وأستاذهم في الأخذ عن كبار المشْيَخَة هناك.

وضمّت تلكم البعثة الأغواطيّة، كلاًّ من الشّيوخ: أحمد شطّة، وأحمد بن أبي زيد قصيبة، ومحمّد دهينة، ومحمّد الطّيِّب، ومحمّد الحدبي[6].

❖ في أروقة جامع الزّيتونة ودُروسِ الكِبَار:

وصل أبو بكر إلى تونس سنة (1932م) برفقة إخوانه وزملائه، وتلقّى العلوم في الجامعة الزّيتونيّة على جلّة منهم: الشّيخ عبد العزيز جعيط، والشّيخ بلحسن النّجّار، والشّيخ عبد السّلام التّونسي، والشّيخ الهادي العلائي، والشّيخ محمّد الزّغواني، والشّيخ البشير النّيفر، والشّيخ الطّاهر بن عاشور، وغير هؤلاء.

لم يكتف أبو بكر بدروس الجامع، بل كان يحضر بالعطّارين محاضرات الأستاذ العربي الكبّادي، وبالخلدونيّة محاضرات الأستاذ عثمان الكعّاك، وكان يُطالعُ لنفسه نفائس المكتبة العبدليّة، مثل: كتاب المحصول للفخر الرّازي، وقد قرأه قراءةَ درسٍ وتحصيل.

❖ الشّيخ أبو بكر... همّة عظيمة وحرصٌ بالغٌ:

قضى الشّيخ أبو بكر في الزّيتونة نحوًا من خمسِ سنين؛ **إلى ربيع سنة (1937م)**[7]، كانت كلُّها في الجدّ والاجتهاد والحرص على التّحصيل الّذي أثمَرَ عليه، حيثُ بَزَّ أقرانَهُ، وبلغَ مرامَهُ، فنبغَ نبوغًا ألحقهُ بمصافّ العلماء الكبار في القطر الجزائري ـ أعني: أستاذَهُ الميلي وأستاذَ أستاذه ابن باديس، والأستاذَ العربي التّبسي ـ، وقد لمس هذه الحقيقة الأستاذ أحمد حمّاني الميلي، وكان شاهدًا على النّبوغ الجزائري في شخص الشّيخ أبو بكر؛ فإنه لمّا دخل الزّيتونة ـ في البدايات ـ، كان الشّيخ أبو بكر ـ في النّهايات ـ، قال: «**وقد تخرّجَ منها بتحصيلٍ قلّما حصل عليه أحدٌ من المدرّسين**»[8]، وقال: «**أنهى دراسته... بتحصيلٍ وافرٍ وعلمٍ غزيرٍ**»[9]، وقال: «كان عظيمَ الجدِّ والاجتهاد يدرسُ حتّى الكتبَ غير المقرّرة في البرنامج الزّيتوني بإيحاءٍ من أستاذه مبارك الميلي.

ومنهُ علمنا أهمّيّة كتاب «المحصول» للإمام فخر الدّين الرّازي، فقد درسَهُ دراسةً خاصّةً، وأحيانًا كان يُلقّنُنا بعض الدُّروس في سنة 1936 و1937م، وكُنّا في سنّ الأهليّة»[10].

❖ العودةُ إلى الأغواط... والشُّروع في العمل:

«بمجرَّد وصوله إلى الأغواط شرع في تعليم الطّلبةِ الّذين تجمهروا عليه في جامع الشّيخ عبد القادر الجيلالي ـ الكائن بشارع عبد الحميد بن باديس حاليًّا ـ»[11]، وكان معه في التّدريس بهذا المسجد رفيقُهُ الشّيخ أحمد شطّة.

❖ في قسنطينة معاونًا لرائد النّهضة ابن باديس:

بَلَغَ نُبُوغُ الشّيخ أبو بكر ووصلَ نبأُ عالميّته إلى الإمام ابن باديس رائد النّهضة العلميّة والدّينيّة في الوطن الجزائري، فأرسَلَ إليه ودَعاهُ ليكون بجانبه في قسنطينة: يُشاركُ في إلقاء دروسٍ للطّلبة وليتلقّى دروسًا عليه أجلُّها درس التّفسير والحديث، والأمالي لأبي علي القالي، ودروس في «مقدّمة ابن خلدون»، ونُدبَ لإلقاء دروسٍ بمدرسة التّربية والتّعليم [بقسنطينة] الّتي كانت في بَدْءِ نهضتها»[12].

❖ الشّيخ أبو بكر... أَدَبٌ جَمٌّ وتواضعٌ بالغٌ:

نتركُ القرّاء الكرام مع أوّل كلمة للشّيخ أبي بكر بمدرسة التّربية والتّعليم بقسنطينة، وفيها أدبٌ رفيعٌ، وعبارة رائقة:

(5) مبروك زيد الخير: «الشّيخ أبو بكر الحاج عيسى ومنهجه التّربوي الرّشيد» (الحلقة الثّانية) «البصائر»، السّلسلة الرّابعة، العدد(77)، (ص:12).
(6) أحمد بن أبي زيد قصيبة وأحمد حمّاني، مصدر سابق.
(7) أحمد بن أبي زيد قصيبة وأحمد حماني، مصدر سابق.
(8) أحمد بن أبي زيد قصيبة وأحمد حمّاني، مصدر سابق.
(9) أحمد حماني: «المجاهد الشّيخ أبو بكر الأغواطي في ذمّة الله [إن شاء الله]، جريدة «الشّعب» 24 ذو القعدة 1407هـ/20 جويلية 1987م، (10).
(10) المصدر السّابق.
(11) الحسن فضلاء، مصدر سابق.
(12) أحمد بن أبي زيد قصيبة وأحمد حمّاني، مصدر سابق.

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، والصَّلاة والسَّلام على النَّبيِّ الكريم، السَّلام عليكم أيُّها الإخوة، يجمُلُ بي، وقد حللتُ محلَّ أستاذنا باديس في محادثته الَّتي اعتاد - حفظه الله - أن يُسمعكم إيَّاها كلَّ يوم أحد، أن أعتذر إليكم أن حَرَمْتُكُم التَّذَوُّق إلى نفاسة معانيه وغوالي حكمه ومواعظه.

هذه اللَّيلة الَّتي تستبطئون حلولها، وتودُّون بكلِّ قلوبكم أن تشدَّ نجومها بكلِّ مغار الفتل حتَّى لا تفلت منكم فيفوتكم كلُّ خير في الاستماع إلى داعية الخير والحقِّ المخلص، فتستضيء نفوسكم بفضل شعاع إيمانه المقتنع النَّافذ إلى الأعماق، وتتزوَّدون من إخلاصه ما يطرد عنكم وسواس الشَّيطان ووحي البيئة الوبيئة كلَّ الأسبوع، ثمَّ أعتذر إليكم أنَّكم لا تسمعون منِّي جديدًا إن لم تمجُّوا حديثي وتملُّوه!

وخوفًا من أن تنتظروا هذا الحديث فيغلبني العيُّ فلا تسمعوه، آثرت أن يكون هذا الحديث مكتوبًا، إذْ لم أتعوَّد حديث الجماعات ولكلِّ امرئٍ من دهره ما تعوَّدَا! على أنَّ تبعة هذا الحرمان لا يَدَ لي فيها، وإنَّما أمرٌ من باعث الحركة ومغذِّيها ارتأى أن يحرمكم ويصلني، وما عسى أن يكون مقدار حرمان ليلة في تكوين رجل! رأى تقاعسي في هذا المضمار وغلبة الحياء عليَّ في هذا الميدان فرماني بكم ورماكم بي كذلك، فلا غبن ولا حيف.

أراد أن يوجِّهني إلى هذه النَّاحية من نواحي الإصلاح الاجتماعي على منظر منه ومسمع حتَّى يسايرني في نزع هذا الوهم المتأصِّل منِّي، ولهذا التَّوجيه فوائده ونتائجه، ولا غَرْوَ فمثلُهُ مَنْ خَبَرَ أدواء الأمَّة وأدويتها، فللَّه هو من زعيم ومن حكيم.

وبعد: فإنَّ كلمتي هذه إليكم ليست خطابًا ولا محاضرة، وإنَّما هي حديث مكتوب فحسبُ لإخوانٍ جمعتني وإيَّاهم خدمة العربيَّة ونشر الإسلام وتأييد جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين في عملها الاجتماعي.

ولا يكون هذا الحديث في تفسير آية أو شرح حديث، فإنِّي أخجل من نفسي أن تسمع الأذن الَّتي سمعت باديس يُفسِّر ويشرح، تفسيري أنا لآية أو شرحي لحديث، ولا أكتمكم أنِّي حضرت دروس التَّفسير والحديث لأكابر العلماء بجامع الزَّيتونة، فما وجدت من يضاهي باديس في فهم سرِّ القرآن والسُّنَّة والشَّريعة الإسلاميَّة.

وإنَّما يكون هذا الحديث في إنشاد بيتٍ عربي...» الخ[13].

❖ مهمَّة إداريَّة للجمعيَّة في عاصمة الجزائر:

بعد سنة دراسيَّة قضاها الشَّيخ أبو بكر في قسنطينة وبمدرسة التَّربية والتَّعليم، عَيَّنَهُ المجلس الإداري لجمعيَّة العلماء رئيسًا لـ«المكتب العمالي» بالعاصمة لتنظيم وتأسيس شُعَب الجمعيَّة في عمالة الجزائر[14].

❖ مشاركتُهُ في احتفال ختم التَّفسير لابن باديس:

أُقيمَ بقسنطينةَ حفلٌ كبيرٌ لمناسبة ختم ابن باديس لتفسير كتاب الله تعالى بعد خمسٍ وعشرين سنةً من الدَّرس، وكان الإبراهيميُّ قد كتب كلماتٍ في التَّعريف بالمشاركين في الحفل؛ من شعراء وخُطباء، وكان المترجَمُ قد خطبَ متكلِّمًا باسم تلاميذِ الإمام ابن باديس.

قال الإبراهيميُّ في التَّعريف بِهِ: «**الأستاذ أبو بكر الأغواطي: شابٌّ أخذ عن الأستاذ الميلي ثمَّ نزَحَ بإشارته إلى تونس في بعثة إلى جامع الزَّيتونة، وهو الآن** [أي: سنة (1938م)] **يشغلُ مركزًا عمليًا من مراكز جمعيَّة العلماء لا يقومُ به إلاَّ المحنَّكُون**»[15].

❖ اضطهادُ الدَّعوة الإصلاحيَّة بالأغواط:

وكغيرها من المدارس العربيَّة الحرَّة الَّتي أسَّسها رجالُ جمعيَّة العلماء وأنصارُها في قرى ومدن الوطن الجزائري، تعرَّضت مدرسة الأغواط للإغلاق ولقي معلِّمُوها الاضطهاد والتَّشريد، ومُنع دعاةُ الإصلاح والمنتمون إلى الجمعيَّة من مزاولة أيِّ نشاط وشُدَّ عليهم الخناق، وهو ما عرف بقانون 08 مارس 1938 المشؤوم، كَتَبَ أغواطيٌّ سنة (1938م) يذكُرُ تعسُّفات الحكم العسكريّ، قال: «فأوعزوا إلى مَنْ أوقفَ سَيْرَ المدرسة وهدَّدُوا من يحضر الاجتماع العام لجمعيَّة العلماء وأهملوا طلبات رُخَص التَّعليم الدِّيني الإسلاميِّ»[16]، كما سَنَّتْ الإدارةُ الفرنسيَّة قوانين تعسُّفيَّة للتَّضييق على نوادي الإصلاح، فكتب الشَّيخ أبو بكر: «**من المكتب المركزي للجمعيَّة: آخرُ سهم مُسَدَّد للقضاء على**

(13) «دعائم العز: في جمعيَّة التَّربية والتَّعليم بقسنطينة»، «البصائر»، السِّلسلة الأولى، العدد (90)، 6 شوَّال 1356هـ/10ديسمبر 1937م، (4).
(14) الحسن فضلاء، مصدر سابق.
(15) «الشِّهاب» ج4، م4 (246)، وخطبة الشَّيخ أبو بكر في (249 - 246).
(16) «البصائر» السِّلسلة الأولى، العدد (117)، (3و6).

النَّهضة الجزائريَّة...»[17]، نبَّه فيه على خطر هذا القانون ودعا إلى الاحتجاج عليه وإلى الاجتماع لاستنكاره.

❖ الشَّيخ أبو بكر... وأوهامُ الطُّرُقيَّة:

صادَفَ وجودُ الشَّيخ أبو بكر بالعاصمة في مركز الجمعيَّة رئيسًا لمكتبها العمالي، انعقاد «مؤتمر الطُّرقيَّة» - يوم 15 أفريل 1938م، والأيَّام الَّتي تَلِيه -، وقد كان بإيعازٍ من الإدارة الاستعماريَّة الماكرة، وفي الوقت الَّذي أظهر فيه المصلحون المعارضة السِّياسيَّة للإدارة في معاملتها للأمَّة الجزائريَّة واضطهادها في حرِّيَّتها الدِّينيَّة وتعليم العربيَّة في مدارسها الحرَّة الَّتي أسَّستها الأمَّةُ بمالها وبجهد أبنائها، في الوقت الَّذي عُرْقِلَ فيه التَّعليم العربي الإسلامي بِسَنِّ قوانين جائرة، حرَّكت الإدارةُ «الآلةَ» الطُّرقيَّة لمجابهة العلماء المشوِّشين المتدخِّلين في السِّياسة بزعمها!... حضر الشَّيخ أبو بكر «مؤتمر الطُّرقية» بل «زردتهم الكبرى»، واستمع إلى مطالبهم في نهاية «الزَّردة»، وما كتبت عنها الصحف الفرنسيَّة بحُكْم معرفةِ الشَّيخ أبو بكر باللِّسان الفرنسي، نَقَلَ كُلَّ ذلك في جريدة الجمعيَّة: «البصائر» عن مشاهدةٍ وعيان، ولم تخرج خطابات المؤتمر عن نقطتين:

1. تحريمُ الكلام في السِّياسة ونهي الأتباع والأمَّة عن التَّدخُّل في سياسة فرنسا:

يقول أبو بكر: «وخطب السَّيِّد محمَّد بن الموهوب القسنطيني... وختم خطابَهُ بالتَّنفير عن السِّياسة، فسألتُهُ من الغد عمَّا يقصدُ بالسِّياسة وهل مطالبتُنا فرنسا بحقوقنا تحشرُ في هذه اللَّفظة، فقال: لا، وإنَّما قصدتُ إلى سياسة الانتخاب المُفرِّقة»، يُريدُ الشَّيخ أبو بكر من هذا أنَّ مِنَ المشاركين في المؤتمر مَنْ لا يدرون ما يقولون، وفي مصلحةِ من يتكلَّمون، وأنَّهم حُرِّكُوا فتحرَّكُوا.

ويقول الشَّيخ أبو بكر: «ثمَّ أنشد نَجْلُ عبد الحيِّ الكتَّاني قصيدةَ السَّيِّد سُكيرج قاضي مرَّاكش، من أبياتها: ....دعوا السِّياسة إن رمتم نجاحكم!...»الخ.

وسُكيرج هذا، هو أحدُ الهائمين في التِّيجانيَّة! وهو الَّذي صار يُغيثُ الطُّرقيِّين في حَرْبِهم مع المصلحين، وهو الَّذي قال في إحدى زياراته للجزائر: إنَّ المعاكسة لحكومة فرنسا وعدم الإذعان لها ليس سبيلاً للإصلاح![18].

2. الإشادة بالطُّرق وتمجيدُ الطُّرقيَّة وحَشْر ما يُحسَبُ دليلاً على صلتها الوثيقة بالدِّين! والسَّلف الصَّالحين!

قال الشَّيخ أبو بكر: «وحدَّثَ النَّاسَ سي عثماني عبدُ المجيد من زاوية «طولقة» في معنى الطَّريقة وتاريخها **وغالطَ في هذا ما شاء أن يُغالط**»، هذا حُكْمُ الشَّيخ أبو بكر وموقفُهُ من استدلالات القوم، ومع ذلك ففي كلام هؤلاء شيءٌ من الحقِّ لو كانوا يَقِفُون عندَهُ، وهو الَّذي يقولُ به المصلحون لكنَّ القومَ لا يسمعون، ويقولون ما لا يفعلون، قال الشَّيخ أبو بكر: «وممَّا قيَّدتُهُ من كلامه المستحسن: «لا نعتبرُ شيخ الطَّريقة إلاَّ إذا أقام الشَّريعة وعلم الدِّين والعربيَّة»، «نحترم فرنسا إذا احترمت ديننا»، «واجبات أصحاب الزَّوايا تعميرُها بالدِّين والعربيَّة»».

ثمَّ يواصلُ قائلاً: «ثمَّ جاء دور شيخ الطَّريقة الكتَّانيَّة سي عبد الحي الكتَّاني فألقى خطبةً مكتوبةً... تعرَّض لتاريخ التَّصوُّف ومعناه، ومِمَّا اشتُقَّت هذه اللَّفظة، **فلم يأتِ بجديد ولم ينهض بدليل، ودعا إلى المحظور**، فانظر إلى بعضٍ من خطابه: «السُّنَّة ترك العمل، اقتداءً بأهل الصُّفَّة»، أفهل هذا روحُ الدِّين، والنَّبيُّ ﷺ يقول: «**لأَنْ يَحتَطِبَ أَحَدُكُم...**» الخ الحديث».

وَدِدْنَا أنَّ الشَّيخ أبو بكر أفاض في نقض استدلال عبد الحي، لكن يبدُو أنَّ الطَّوْرَ الَّذي كانت تَمُرُّ به الجزائر، والخطر الَّذي كان يُحْدِقُ بالجزائريِّين في دينهم ولُغتهم حالَ دون ذلك ولم يُسعفهم للإفاضة في الكتابات الدِّينيَّة العلميَّة، إِذَنْ لأَلْقَمُوا الطُّرقيِّينَ أحجارًا، ولتركوهم مَبْهُوتِينَ حيارى!

ثمَّ يواصل حاكيًا كلام عبد الحي: «يقول ابن قيِّم الجوزيَّة وهُوَ مَنْ هُوَ!: أعجبتني من كلام أهل التَّصوُّف كلمتان:

- الوقت كالسَّيف إن لم تقطعه قطعك.
- إن لم تستعمل نفسك في الحقِّ استعملتها في الباطل».

ويستنتجُ من هذا مدح ابن القيِّم لأهل التَّصوُّف، **فهل هذا مدحٌ أَمْ ذمٌّ؟ وإلاَّ فكيف لا يَسْتَحْسِنُ من مئات**

(17) «البصائر»، السِّلسة الأولى، العدد (108)، 14 صفر 1357هـ/15 أفريل 1938م، (3).

(18) «البصائر»، السِّلسة الأولى، العدد (147)، (5).

مؤلّفاتهم إلاَّ كلمتين!».

رحمَ اللّه الشَّيخ أبو بكر لقد نقض استدلالَهُ بأوجزِ عبارة، فماذا لوْ تفرَّغَ للرَّدِّ عليه، إذنْ لأتى بالجواب المُفحِم والحُجَّة الظَّاهرة.

ثمَّ يقول: «ومن الغد ألقى درسًا في قصَّة الخضر من «البخاري» فذكر الأقوال المتناقضة ووفَّق بينها أمَّا أن يأخذَ العبرة أو ينفذ إلى ما يقصد... وأمَّا أن يسقي دَرْسَهُ من ماء الحياة الَّذي زعموا أنَّ الخضر عليه السَّلام شرب منها فبقي حيًّا... **فَلاَ فَلاَ**».

ثمَّ أشارَ في خاتمة الجزء الأوَّل من هذه المقالة إلى خطاب الشَّيخ عبد العزيز بن الهاشمي شيخ الطَّريقة القادرية، وقد نَشَرَت «البصائرُ» نصَّهُ[19]، وافتتح الجزء الثَّاني بقوله: «**لقد تركنا الشَّيخ محمد صالح يُسمع الطُّرقيِّين كلمةَ الحقِّ الَّتي كشفت عن أغراضهم فأثارتهم وبيَّنت الَّذي بيَّتُوا فأخْنقَتْهُم، وَوَدُّوا أن يُسكتُوهُ...**»[20].

❖ العودةُ ثانيةً إلى الأغواط:

أذن باعثُ النَّهضة: الإمام ابن باديس للشَّيخ أبو بكر «بأن يرجع إلى بلاده الأغواط؛ لأنَّ وجوده بها أصبح ضربةَ لازبٍ، فهو من أبناء البلد ولا يسهل إخراجه منها كما سهل إخراج أستاذه مبارك الميلي فبادر بالامتثال وانتصب لمهمَّته فيها، وشرع في إحياء عهد أستاذه مبارك فسدَّ الفراغ العظيم الَّذي تركه»هـ[21].

وقد مرَّ هذا الوقتُ عصيبًا على دعوة الإصلاح وبلاءً انصبَّ على المصلحين، فلم تَهُنْ لهم عزيمة ولم تضعُف لهم قوَّة.

❖ في الحرب العالميَّة الثانيَّة... وَفَاءٌ وتَحَدٍّ:

خيَّم جوُّ الحرب العالمية الثَّانيَّة على الوطن الجزائري بظُلمه وظلامِه، وسيق العلماء الأحرار إلى السُّجون والمعتقلات، ونُفي الإبراهيمي إلى صحراء «آفلو»، وفُرضت الإقامة الجبريَّةُ على ابن باديس إلى أن وافاه أجلُهُ، وانقطعت الصِّلاتُ بين رجال

(19) انظر العدد (21) من هذه المجلَّة المباركة.
(20) «مؤتمر الطُّرقيَّة»، الجزء (1) في «البصائر»، السِّلسة الأولى، العدد (111)، (6)، والجزء (2) في العدد (114)، (6-7).
(21) أحمد بن أبي زيد قصيبة وأحمد حمَّاني، مصدر سابق.

الجمعيَّة، وشُلَّ نشاطُها إلاَّ في نطاق محدود، وظلَّ الإبراهيمي في منفاهُ وحيدًا غريبًا في أيَّام عدَّها نحْسًا عليه لولا أنَّ رجالَ الأغواط وشباب النَّهضة الإصلاحيَّة وشيبَها كذلك، قطعوا تلك الوَحدة وبَدَّدُوا ذلك الجوَّ المُظلِم، فكان الشَّيخ أبو بكر والشَّيخ أحمد قصيبة وغيرُهما من أهل العلم والفضل والشَّجاعة والشَّهامة يزورونه ويأتونه في آفلو على مسافة بعيدةٍ من الأغواط، فابتهج بهم وسُرَّ لمؤانستهم، إلى أن قرَّرت السُّلطات العسكريَّة منعَهم زيارته، وسُجن الشَّيخ أبو بكر من أجل ذلكَ مع أخيه الشَّيخ محمَّد بن بلقاسم، وسُجن الشَّيخ أحمد قصيبة[22].

❖ مهامٌّ إداريَّة لجمعيَّة العلماء في عاصمة الجزائر:

كان رئيس جمعيَّة العلماء الشَّيخ الإبراهيمي قد وعد الأستاذ: أحمد قصيبة، والشَّيخ أبو بكر، أن لا يتركهما بالأغواط، وأن ينقُلَهما معهُ إلى الجزائر لحاجةِ جمعيَّةِ الأُمَّة إليهما هناك[23]، ولمَّا أُطلق سراح الرَّئيس واستأنفت الجمعيَّة نشاطها وعادت إلى اجتماعاتها أسَّسَ الإبراهيمي مركزَ الجمعيَّة بقَصَبَةِ الجزائر، وانتُخبَ الشَّيخ أبو بكر عضوًا في الهيئة العليا لجمعيَّة العلماء وانتخبته هذه الهيئة سنة (1946م) **أمينًا عامًّا** لها خليفةً للشَّيخ العربي التَّبسي الَّذي انتخب نائبًا للرَّئيس الإبراهيمي، وعُيِّن مديرًا لمدرسة «الإرشاد» بالبليدة سنة (1950م)، فقام بالمهمَّتين لمدَّةٍ قصيرةٍ إلى أن خَلَفَهُ في الأمانة العامَّة الأستاذ توفيق المدني سنة (1951م)[24]، وعاد إلى الأغواط والتحق بإخوانه المصلحين «الَّذين نهضوا نهضةً مباركةً، وكوَّنوا مدرسةً عصريَّةً عُدَّت من أحسن مدارس القطر، وأمدَّت معهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة بأنبغ الطَّلبة»[25]، وتمَّ تدشينُها في سنة (1948م) تحت إدارة الشَّيخ أحمد شطَّة، الَّذي اغتاله العدوان الفرنسي أثناء ثورة التَّحرير رَحِمَهُ اللَّهُ، كان خلالها الشَّيخ أبو بكر أستاذًا بهذه المدرسة ومسؤولاً عامًّا عن سير الحركة

(22) أحمد بن أبي زيد قصيبة وأحمد حمَّاني، مصدر سابق، ومقال الشَّيخ محمَّد البشير الإبراهيمي في منفاه بمدينة آفلو بقلم: أحمد قصيبة (283-285)، نُشر بمجلَّة «الثَّقافة»، العدد (87).
(23) الحسن فضلاء، مصدر سابق.
(24) أحمد بن أبي زيد قصيبة وأحمد حمَّاني، مصدر سابق، والحسن فضلاء، مصدر سابق.
(25) أحمد بن أبي زيد قصيبة وأحمد حمَّاني، مصدر سابق.

الإصلاحيَّة بالأغواط[26].

❖ شهادةٌ من الشَّيخ الأكبر الإبراهيمي:

كتب الشَّيخ الإبراهيمي للشَّيخ أبو بكر تزكيةً، مُعرِّفًا بمنزلته العلميَّة وكفاءته العمليَّة، وهذا نصُّها:

«يشهدُ الممضي أسفلَهُ محمَّد البشير الإبراهيمي رئيس جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين أنَّ ولدنا الشَّيخ أبو بكر بن بلقاسم الحاج عيسى كان قد تعلَّم على المرحوم الشَّيخ مبارك الميلي بالأغواط، والشَّيخ عبد الحميد بن باديس بقسنطينة ثمَّ انتقل إلى تونس فواصلَ تعلُّمَهُ بالزَّيتونة خمس سنوات إلى أن تخرَّجَ بقوَّة العالميَّة، ثمَّ التحق بحركة جمعيَّة العلماء وعمل بحَقْلَيْ التَّعليم المدرسي والوعظ والإرشاد، وكان ناجحًا موفَّقًا مُنْتجًا ممَّا أهَّلَهُ إلى إدارة المدارس، ثمَّ عضويَّة لجنة التَّعليم والتَّفتيش الجهوي، وكان من أحسنِ النَّاسِ سلُوكًا واستقامةً، وقد كتبتُ لهُ هذه الشَّهادة ليستظهرَ بها عند الحاجة.

رئيس جمعيَّة العلماء الجزائريِّين»[27].

❖ أثناء ثورة التَّحرير المُظَفَّرَة:

أُلقي القبض على الشَّيخ أبو بكر وعلى الشَّيخين: أحمد شطَّة، والحسين زاهية يوم 15 أوت سنة (1958م)، ولقوا أنواعًا من التَّعذيب والإهانة، ومنهم من أُعْدِمَ كالشَّيخ أحمد شطَّة رَحِمَهُ اللهُ، وأُبعِدَ الشَّيخ أبو بكر إلى معتقل بني مسوس بالعاصمة، وما أُطلِق سراحُهُ إلاَّ في أوائل سنة (1960م)، ليدخل في عزلة اضطراريَّة ويقبعَ في إقامة جبريَّة في منزله، إلى أن أَذِنَ اللهُ تعالى لهذه الأمَّة أن ترى النُّور، وتتحرَّرَ من ذلِّ العبوديَّة، ويخرُجَ الاستعمارُ! ذليلاً مقهورًا خائبًا محسورًا.

❖ أعمالُه بعد الاستقلال:

عُيِّن مفتِّشًا للُّغة العربيَّة بالمناطق الصَّحراويَّة الأغواط، غرداية، متليلي، المنيعة، ثمَّ نُقل إلى تُقُّرت في سنة (1965م)، فما لبث أن عاد إلى منطقته الأولى مفتِّشًا للتَّعليم الابتدائي والمتوسِّط بدائرة الأغـواط فقام بمهمَّته خير قيام، وكوَّن المعلِّمين وأرشدهم ووجَّههم، إلى أن أحيل على التَّقاعد في سنة (1982م).

❖ حُبُّهُ للعمل في ميدان التَّربية والتَّعليم:

لقد كان بإمكانِ الشَّيخ أبو بكر أن يَتَبَوَّأَ أعلى المناصب عن جدارة واستحقاق، لكنَّه رَحِمَهُ اللهُ لبُعْدِه عن الرَّسميَّات وكراهته للاشتهار آثرَ أن يعملَ في هُدُوءِ المخلصين، ولم يشأ أن يقطعَ نضاله في حقل التَّربية والتَّعليم الَّذي ابتدأَهُ في عهد الظُّلم والاستعمار، وها هو يمضي فيه في عهد الحرِّيَّة والنُّور؛ وقد ألَّفَ سنة (1966م) ثلاثة أجزاء لتلاميذ المرحلة الابتدائيَّة بعنوان «القواعد الواضحة» في اللُّغة العربيَّة، في إعرابها وأساليب بيانها[28]، ليُضيف بذلك لَبِنَةً في بناءِ صَرْحِ المنظومة العلميَّة التَّربويَّة في الجزائر المستقلَّة[29].

قال أحمد قصيبة وأحمد حمَّاني: «لم يتطاول الشَّيخ أبو بكر لينال ما يستحقُّ من منصبٍ رفيعٍ في دولته، بل التزم التَّربيةَ والتَّعليم والوعظ والإرشـاد، وقد قنع بمنصب مفتِّش التَّعليم الابتدائي والمتوسِّط ورضي أن يبقى في ميدان التَّربية الَّذي قضى فيه كلَّ حياته، ولو تطلَّع إلى أعظمَ منهُ منزلةً لنالَهُ لجَمْعِه بين الثَّقافَتَيْنِ ولما يمتازُ به من كفاءةٍ وذكاءٍ وألْمعيَّة، وقد استمرَّ يقومُ بأعمال الوعظ والإرشاد في المساجِد».

❖ دروسُه المسجديَّة:

شرع الشَّيخ أبو بكر في شرح «الموطَّأ» للإمام مالك بأحد مساجد الأغواط: «بأسلوب رائع جذَّاب، وتدليل محقِّق مدقِّق، ولكنَّه لم يجاوز بابي الطَّهارة والصَّلاة حتَّى انقطع عن تلك الدُّروس بما لحقه من رهق، وما طرأ عليه من مرض، وسُرعان ما تلاحقت عليه العلل بعد خروجه إلى التَّقاعد، فلزمَ بيتَهُ ورَكَنَ إلى المطالعة والمذاكَرَة وأصبح منزلُهُ ناديًا للزَّائرين، وقبلةً للمستفتين، يتردَّدُ عليه الثُّلَّةُ من أحبابه وأقرانه يزورونه بالعشيِّ والإبكار، ورغم أنَّه كان يَكْتُمُ أَنَّتَهُ ويبتلع آلامه، فقد كان يستقبلُ

(26) أحمد بن أبي زيد قصيبة وأحمد حمَّاني، مصدر سابق، والحسن فضلاء، مصدر سابق.

(27) عن النُّسخة المصوَّرة عن الأصل، أمدَّني بصورة منها أخونا الشَّيخ ياسين طيبي الأغواطي ـ حفظه الله ـ، وهو عن نسخة الأستاذ الفاضل: بن عمر قصيبة ـ حفظه الله ـ: أخي الأستاذ أحمد قصيبة رَحِمَهُ اللهُ.

(28) الحسن فضلاء، مصدر سابق.

(29) مبروك زيد الخير: «الشَّيخ أبو بكر الحاج عيسى ومنهجه التَّربوي الرَّشيد» (الحلقة الثَّالثة) / «البصائر»، السِّلسلة الرَّابعة، العدد (78)، (12).

العامَّ والخاصَّ ببشاشةٍ وطلاقة مُحَيًّا، ويُفيض من علمه وفهمه، ومن حكمته وأدبه ما يأنس به المجالس ويطمئنُّ له المؤانس»[30].

❖ من فوائدِهِ ومآثِرِهِ العلميَّة:

يقول عنه أحمد حمَّاني ـ زميله في العلم والعمل ـ: «**الَّذين يعرفون الشَّيخ أبو بكر يعرفون فيه الذَّكاء الحادَّ الَّذي يرفعه إلى الألمعيَّة... ويعرفون فيه متانةَ التَّحصيل، والعلم الغزير**»[31]، ونترُك القرَّاء الكرام مع الأستاذ د.التَّواتي بن التَّواتي يُحدِّثُنَا عن الشَّيخ؛ يقولُ بعد أن وَصَفَهُ **بسعة الاطِّلاع الَّتي لا حدَّ لها:**

«اتَّفقنا على اللِّقاء العلميِّ في السِّرِّ في مكتبه وطلب منِّي أن لا أُخبر أحدًا وسألني: كيف أقرأ؟ فأخبرته الخبر، فقال لي: إنَّ نتيجة القراءة ثلاثة:

- شيءٌ فهمته لا تحتاج من يشرحه لك.
- شيءٌ فهمته ولم تفهمه أي فهمته نصف الفهم.
- شيءٌ استغلق عليكَ واستعصى.

أمَّا الشَّيء الَّذي فهمته فطلب منِّي أن ألخِّصه، وأمَّا الشَّيء الَّذي فهمت بعضه فطلب منِّي أن أقيد له ما لم أفهمه، أمَّا ما استغلق واستعصى فهو محل الشَّرح والإيضاح، وكان أوَّل كتابٍ قرَّرَهُ لي «بدائع الفوائد» لابن قيِّم الجوزيَّة، بدأنا به المشوارَ ثمَّ «مدارج السَّالكين»، فـ«الاعتصام»، فـ«الموافقات» للشَّاطبيِّ... حتَّى قعد به المرض»، وقال: «ولمَّا سمع أنِّي تصدَّرتُ التَّدريس بالمساجد زارني في البيت وأسدى إليَّ نصائح وألحَّ عليَّ فقال لي: **لا بدَّ من تعليم الناسِ المطالبَةَ بالدَّليل**»، وقال عن مؤلفاته: «له هوامش على تفسير محاسن التَّأويل للقاسمي، ذكر لي هذا عندما تضاربت الأقوالُ وشاع لدى النَّاس أنَّهُ كتب تفسيرًا للقرآن الكريم فسألتُهُ عن ذلك فقال لي: «كتبتُ هوامش على تفسير القاسمي الموسوم بمحاسن التَّأويل...»[32].

❖ مَرَضُهُ ووَفاتُه:

تعرَّضَ في آخر حياته لمرض عضال استعصى على الأطبَّاء علاجُهُ فلازمَ الفراشَ مدَّة سنةٍ ثمَّ لقي ربَّهُ عن سنٍّ 72 عامًا، في يوم الأحد 02 ذي القعدة 1407هـ/26 جوان 1987م رَحِمَهُ اللهُ.

(30) مبروك زيد الخير: «الشَّيخ أبو بكر الحاج عيسى ومنهجه التَّربوي الرَّشيد» (الحلقة الثَّالثة)/ «البصائر»، السِّلسلة الرَّابعة، العدد (78)، (12).
(31) أحمد حمَّاني، مصدر سابق.

(32) د/ التَّواتي بن التَّواتي: «التَّعريف بأعلام من مدينة الأغواط»، مجلَّة «الواحات للبحوث والدِّراسات»، العدد (1)، ديسمبر 2006م، (33ـ40).



واثكل لغتاه!!

صدام زميت
ولاية برج بوعريرج

الحمد لله الَّذي أنزل الفرقان بلسانٍ عربيٍّ مبين، وفضَّله سبحانه على كتب المتقدِّمين وزُبُر الأوَّلين، وجعله للنَّاس هدى ورحمةً وفصَّله للعالمين، وجعل البيانَ في لغته فقال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ٢٨﴾ [سورة الزمر]. فعجزت عن مثْله ألسنةُ البُلغاء المُفوَّهين، وحارَتْ في مُعْجزته عُقُول الحُكَمَاء المفكِّرين.

إنَّ الَّذي مَلأَ اللُّغاتِ مَحَاسنًا

جَعَل الجمالَ وسِرَّهُ في الضَّادِ

وصَلَّى الله وسلَّم على أفصح من نطق بالضَّادِ في الأوَّلين والآخِرين، اصطفاه سبحانه من خير قبيلة في العرب ليُظْهِرَه على الدِّين كلِّه ولو كَرِه المشركون، وعلى آله وصحبه ومن اتَّبَعَ هُدَاهُم إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فقد كان للعربيَّة في زمانٍ شأنٌ مرفوع، وكان لها بيتٌ معمور يقصده من رام البيانَ وسرَّه، وطلَبَ البديعَ ودرَّه، حتَّى إنَّهُ ليجتمع قبائلُ العَرَبِ فيه ليعَلِّق الشَّاعرُ قصيدته مُفَاخِرًا، ويخطُبَ المِصْقَعُ خطبته بلسان عربيٍّ مبين، ولم يلبث أنْ بدأ شأنها ينقُص ويتضَعْضَع لمَّا اختلط العرب بالعَجَم، وتكالَبَ على الأمَّة العربيَّة باقي الأمم، إلى أن آل إلى ما هو عليه اليوم، رغم أنَّ العلماء من سلف الأمَّة العربيَّة حاولوا تدوين كلام العرب، وذلك من خلال قواعد وقوانينَ لحفظ مبادئ هذه اللُّغة السَّامية، استنباطًا من كلام الله عزَّ وجلَّ، واستقراءً لكلام العرب الأوَّلين، ولا يزال المرض يحُوم بهذه اللُّغة إلى يومنا، فالعُجْمَة يَتَلَقَّفُها كلُّ لسان، والفساد دبَّ في لغة البيان، والله المستعان وعليه التُّكلان.

قد قُدِّر لنا أن نكون في زمان لا يرى فيه المسلم العربيُّ فخرًا ولا عزَّةً لنفسه أكبر من تقليد الغربيِّين، والنُّطق بلسانهم، واقتفاء أثرهم، فهَجَرَ المخدوعُ عربيَّته، وجَفَا لسانَه وسجيَّته، وباع دينه ونسِيَ أصله وأنكر نسبَه، فما أشدَّها من مصيبة، وما أكبرها من وصمة عارٍ في جبينه، وقد بلغ الغربُ منه مَبْلَغَهم، وأخذوا بلبابه وقشوره، وأرسلوا جيوشهم فجاسوا خلال عقيدته، وعاثوا في أخلاقه فسادًا، وتبَّرُوا ما عَلَوْا من موطنِ أسراره تتبيرًا، فكانت الطَّامَّة عندها ـ نسأل الله العافية ـ.

وأصبحَ كلامُ الجزائريِّ كلُّه غيرَ منصرف، وعلَّةُ امتناع صرفه في ذلك العُجْمةُ القبيحة، ويا لها من فضيحةٍ شنيعَةٍ وداهيةٍ جموحة، بل قد ينتهي الأمر بالشَّابِّ العربيِّ الأصل، العربيِّ اللَّهجة، إلى نبذ دينه وتدنيس عقيدته، وتسليم إسلامه لأعدائه، مع أنَّ الإسلام قد حَفِظَ له لُغَتَه، وصان له عرضَهُ وشَرَفَه، ورفع له أصله ونسبه، كما انتهى الأمْرُ بأولئك الطَّحاسنة[1] الجاحدين لنعمة الإسلام والقرآن، الكافرين بمِنَّتِهما على الطَّبع واللِّسان، الدَّاعِين لتفتُّح الحضارات وهم قد غلَّقوا أبوابها، الزَّاعمين لتواصُلها وهم قد قطَّعُوا أسبابها، المدَّعِينَ لإصلاحها وهم قد أفسَدُوا جَنَابَهَا.

فهذه آفاتٌ كما ترى أحاطت بلغتنا فأكثَرَتْ عليها الدَّخِيل، وعَوَّدَت اللِّسانَ

(1) نسبةً إلى طه حسين الدَّاعي إلى تجديد اللُّغة وإدخال الدَّخيل عليها، وهو النَّاقد الَّذي أراد نقد القرآن الكريم، وهيهات له ذلك! انظر كتاب: «طه حسين في ميزان العلماء والأدباء»، وكتاب «تحت راية القرآن».

العربيَّ الخُمُول، فصار اللَّحن في الإعراب دَأْبَ الأديب، وصار الخلْطُ في الألفاظ هِجِّيرَ الخطيب، وأيسْنَا من البليغ أن يبلغ مأربه، حتَّى انهار صرح البلدان النَّاطقة بالضَّاد، وأصبح لا يُسمع للفصحى صَدًى، ومن أسباب ذلك ما عَمِل على نشره بعضُ المتشدِّقين العاجزين، بترويج العامِّيَّة في مقالاتهم، زعمًا منهم أنَّها لهجاتٌ أقربُ إلى فهم الجمهور، ولم يعملوا على رفع مستوى هذا الجمهور بل أنزلوا مستواهم وتنازلوا عن لغتهم، واستبدلوا الَّذي هو أدنى بالَّذي هو خير، ولم يعلموا أنَّ في لغتهم صلاحَ دينهم وأخلاقهم، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أنَّ اعتياد اللُّغة يؤثِّر في العقل والخُلُق والدِّين تأثيرًا قويًّا بيِّنًا، ويؤثِّر أيضًا في مشابهة صدر هذه الأمَّة من الصَّحابة والتَّابعين، ومشابهَتُهم تزيد العقلَ والدِّينَ والخُلُق»(2).

لقد صار الشَّابُّ العربيُّ - ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله - لا يَعْرِفُ الفاعلَ من المفعول، ولا الماضيَ من المضارع، ولا الاسمَ من الفعل، فَضْلاً عن أنْ يعرفَ البناءَ من الإعراب، أو أن يعرف الحروف ومعانيَهَا، فكيف بالله يمكنه فهمُ كتاب الله، أو فهمُ سُنَّة رسول الله ﷺ، وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ نفسَ اللُّغة من الدِّين، ومعرفتُها فرْضٌ واجبٌ، فإنَّ فَهْمَ الكتاب والسُّنَّة فرْضٌ، ولا يُفْهم إلاَّ بفهم اللُّغة العربيَّة، وما لا يتمُّ الواجبُ إلاَّ به فهو واجبٌ»(3).

(2) «اقتضاء الصِّراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ (469/1).

(3) «اقتضاء الصِّراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ (469/1).

ولا يقف الحال عند هذا الحدِّ بل ربَّما عرف بعضهم هذا وتعمَّد نَصْبَ الفاعل ورفْعَ المفعول، وادَّعى في ذلك الحرِّيَّةَ في الكلام، ويا لها من حرِّيَّةٍ حريٌّ بها أن تُزَال؛ لأنَّها حرِّيَّة عانت منها لغتُنَا الويلات، ويا ثكل لُغَتَاه!!

وإذا نظَرْتَ إلى الأوساط المثقَّفة من الشَّباب بل من المتخصِّصين في الأدب العربي ومن هم في المرحلة النِّهائيَّة من الدِّراسات الجامعيَّة رأيتَ ضياعَ الأدَب لفظًا ومعنى، ووجدت من لا يحسن تعبيرًا، ولا يوجز تطويلاً، ولا يُتقنُ تخصُّص مجاله بَله من هم في مَيادينَ أخرى.

لا نطلب من الشَّابِّ أن يكونَ الخليلَ بنَ أحمد، ولا نريد له أن يعتكف على كُتُبِ النَّحويِّين حتَّى يصْبحَ سيبويه، ولكن اهتمامٌ يسيرٌ واعتزازٌ كبير بهذه اللُّغة يكفي.

لا نطلب من الشَّابِّ أن يكونَ الخليلَ بنَ أحمد، ولا نريد له أن يعتكف على كُتُبِ النَّحويِّين حتَّى يصْبحَ سيبويه، ولكن اهتمامٌ يسيرٌ واعتزازٌ كبير بهذه اللُّغة يكفي

وإذا كنَّا قد عرفنا مكْمَنَ الدَّاء، ومخْبَأ المرض، وعرفنا بعض أسباب انحطاط هذه الأمَّة العربيَّة - لقَبًا في الواقع -، فكيف العلاج يا ترى؟ وما هو السَّبيل - بعد توفيق الله تعالى - إلى الشِّفاء؟ ومن أين نبدأ الإصلاح لينشأ لنا جيلٌ لغةُ شَبَابِهِ الفُصْحَى؟

في البداية قَمِنٌ بنا أن نعلم أنَّ الوقاية خيرٌ من العلاج، ولو سعى رجال القوم إلى تنشئة أبنائهم على حبِّ لغتهم والتَّكلُّم بها لكان لنا جيلٌ يتكلَّم الفصحى سليقةً لا يتعدَّاها إلى غيرها من اللُّغات أو اللَّهجات، ولكن حدَثتْ علَّةٌ برجال القوم وَجَبَ علاجُها، فإذا صَلَحَت العَيْنُ صلحت سواقيها، ولا بُدَّ من إصلاح العين قبل الشُّرُوع في هذا المشروع، فنقول وبالله نستعين:

أوَّلاً: على رجال الأمَّة الرُّجوعُ إلى دينهم، والتَّمسُّكُ بعقيدتهم ووقايةُ أهلهم، والبراءةُ من الغرْبِ وأهلِه وعاداته وطَبْعه، ثمَّ عليهم بترك لغة العجم ونبذها، بل وتهميشها كَيْلاَ ينشأ ناشئُ الجيل الصَّاعد وقلبُه مُعَلَّقٌ بالعجمة، يحبُّها ويعتزُّ بها، فمن الخطوب المدلهمَّة أن ترى لدولة عربيَّة تعليمًا بغير لغتها.

ثانيًا: علينا العودةُ إلى لغتنا ودراستُها، ثمَّ الاهتمامُ بها والعناية بتطبيقها والتَّكلُّم بها في حياتنا تكلُّمًا يسْمَحُ لنا بحفظ مبادئها وترسيخ قواعدها ومبانيها، وهذا - والله! - لا يكون إلاَّ إذا بدأ كلُّ شخص مع نفسه، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

ثالثًا: على الهيئات التَّعليميَّة التَّركيزُ على هذا الجانب أكثر من غيره، فتعملَ على تعليم العربيَّة وعلومها وقواعدها تعليمًا يجعَلُ المتعلِّمَ قادرًا على فهم الكلام العربي، وممارسة التَّكلُّم باللُّغة العربيَّة ممارسةً صحيحة، وفي هذا عزٌّ للبلادِ والعباد، يقول البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ

في إحدى مقالاته «إلى مؤتمر التَّعريب»: «ويجب حمل التَّلامذة على التَّكلُّم بالعربيَّة الفصحى ما داموا في المدرسة، وتدريجهم على الكلمات السَّهلة، ثمَّ الجمل الفصيحة، ثمَّ التَّراكيب الجارية على القوانين العربيَّة، فلا يُجاوزون مرحلة التَّعليم الابتدائي إلاَّ وهم عرب صغار، ومن الحكمة في هذه المرحلة ألاَّ ينطق المعلِّمون أمامهم بكلمة أعجميَّة حتَّى لا تخدش ملكاتهم، فإنَّ كلمةً واحدةً قد تفسد كلَّ عمل».

رابعًا: من المهمِّ جدًّا أن نولِّيَ الأدب عناية فائقة، ونحافظَ عليه وعلى حامليه ونخلِّصه ممَّا قد يشوبه من اللَّحن والدَّخيل من عجمة الأعاجم، فاللُّغة العربيَّة تعتبر حاملة لواء ثقافة العرب، وجامعة روابطهم ومبرزة شخصيَّاتهم، وخدمتنا للغتنا تعين على خدمة ديننا ولا شكَّ، فعلينا أن نغذِّي مكتباتنا بكتب اللُّغة وعلومها وأن نستغلَّ كلَّ وسيلةٍ تُسهم في نشر هذه اللُّغة وتسهيلها للعالمين.

هذا وينبغي عليك ـ يا طالب العلم ـ أن لا تهمل عربيَّتك، وشأنُها يخصُّك أكثر من غيرك، فاحرص على طلب هذه الآلة الضَّروريَّة، واجتهد للحصول عليها، وهي سهلة على من سهَّل الله عليه تحصيلَها، ثمَّ رَوِّض لسانَك ـ أيا طالبَ العلم ـ وقَلمَك عليها، حتَّى إذا أتقنتها؛ فاحمد الله تعالى أَنْ ألهمَكَ لغة القرآن، وعلَّمك معجزة البيان، قال الإمام الشَّافعي رحمه الله: «فعلى كلِّ مسلم أن يتعلَّم من لسان العَرَب ما بَلَغَهُ جَهْدُهُ»[4]؛ حتَّى يؤدِّيَ فرائضه حقَّ الأداء، وناهيك في معرفة فضل هذه اللُّغة أنَّ القرآن أُنزل بها عربيًّا غيرَ ذي عِوَج، وأنَّه جاء مُشَرِّفًا لها، فهو حاميها ورافعُ شأنها، كما يكفيك أنَّك لا تجد عالمًا ربَّانيًّا ولا فقيهًا شرعيًّا أو مفسِّرًا لكتاب الله لا يجيدها.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

(4) «الرِّسالة» للإمام الشَّافعي ـ تحقيق أحمد محمَّد شاكر (132) باختصار في آخره.

قُرَّة عين الأبوين في رعاية و تربية البنات والبنين (3)



نجيب جلواح

هذا هو الجزء الثَّالث والأخير من هذه السِّلسلة التَّربويَّة، والمتعلِّق بقضيَّة حسَّاسة جدًّا، وهي تربية الطِّفل تربيةً إسلاميَّة، والحاجة ماسَّة إلى مثل هذه المواضيع، خاصَّة في زماننا هذا، لا سيما مع الفساد الأخلاقي الَّذي فشا في مجتمعاتنا وانتشر انتشارًا رهيبًا، وما زاد في الطِّين بلَّة، هو إهمال بعض الأولياء لأبنائهم، وتفريطهم في أداء هذا الواجب؛ لذا كان علينا لزامًا أن نتوجَّه إليهم بهذه التَّذكرة . «والدِّينُ النَّصيحَةُ» . عسى الله أنْ ينفعهم بها، وتجد قلوبًا واعيةً، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه. وإكمالاً لما توقَّفنا عنده في الجزء الثَّاني، ممَّا يتعيَّن على الآباء أن يَعلموه ويُعلِّموه أبناءَهم؛ أقول. وبالله أستعين.:

❖ **تعليم الولد الأخلاق الفاضلة والآداب الإسلاميَّة والسُّنن النَّبويَّة:**

ينبغي لوليِّ أمر الطِّفل أن يُعلِّم صغيره الأدب، ويحلِّيه بفضائل الأخلاق، فهي زينة الفتى؛ فعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَيُّمَا رَجُلٍ كَانَتْ عِنْدَهُ وَلِيدَةٌ فَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا وَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ...**» الحديث[1].

فإذا كان هذا الثَّواب . وهو مُضاعفة الأجر . لمن علَّم أَمَتَه وأدَّبها، فلا يبعد أنْ يكون لمعلِّم ولده ومؤدِّبه مثلُه، فيُرجى له مضاعفة الأجر . أيضًا . والله واسع الفضل.

قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه . في تفسير قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم : 6] .: «علِّموهم وأدِّبوهم»[2].

وتعليم الصَّغير الأخلاق، وأمره بالفضائل، من حقِّ الولد على أبيه؛ فعن ابن المبارك قال: كان سفيان الثَّوري يقول: «حقُّ الولد على الوالد أن يُحسن اسمَه، وأن يُزوِّجه إذا بلغ، وأن يُحسن أدبه»[3].

ومن ذلك أن يربِّيه على احترام الكبار . سنًّا أو علمًا . ويوقِّرهم، ويعرف لهم حقَّهم، ويُنزلهم منازلهم؛ فعن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: جاء شيخ يريد النَّبيَّ ﷺ فأبطأ القوم عنه أن يوسِّعوا له، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَم صَغِيرَنَا وَيُوَقِّر كَبِيرَنَا**»[4]، وفي رواية: «**ويَعرِف حَقَّ كَبِيرِنَا**»[5].

(1) أخرجه البخاري (5083).
(2) رواه ابن جرير الطَّبري في «تفسيره» (165/28) وعبد الرَّزَّاق في «المصنَّف» (4741).
(3) رواه المروزيّ في «البرِّ والصِّلة» (155) وقال محقِّقه: «رجال إسناده ثقات».
(4) أخرجه التِّرمذي (1919) وهو في «صحيح سُنن التِّرمذي» للألباني (1565).
(5) أخرجه أبو داود (4943) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وهو في «صحيح سُنن أبي داود» للألباني (4134).

ومن الآداب الَّتي ينبغي للآباء تلقينها صغارهم: أن يبدأوا الكبارَ بالتَّحيَّة ويسبقوهم إليها، وهو من باب التَّواضع لهم؛ لأنَّ حقَّ الكبير أعظم، والصَّغير مأمور بتوقير الكبير واحترامه؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**يُسلِّمُ الصَّغيرُ عَلَى الكَبِيرِ والمَارُّ عَلَى القَاعِدِ والقَلِيلُ عَلَى الكَثِيرِ**»[6].

ومن ذلك ـ أيضًا ـ: أن يعوِّدوهم ألاَّ يتكلَّموا قبل الكبار لقوله ﷺ: «**كَبِّرْ الكُبْرَ. أو قال. لِيَبْدَإِ الأَكْبَرُ**»[7].

وعلى وليِّ الطِّفل أن يُعلِّمه السُّنَّة في الأمور كلِّها، بما في ذلك آداب النوم والاستيقاظ وآداب اللُّبس، وآداب الخلاء، وآداب السّفر، وآداب الضيافة والزيارة، وآداب المجالس، وآداب الذّكر، وآداب التّحية والسّلام، وآداب الاستئذان، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْۚ﴾ [النور: 58] وآداب الطَّعام والشَّراب، فيجلسه معه على المائدة، ويُراقب حركاته وتصرُّفاته، فإنْ لاحظ مخالفة شرعيَّةً، أو سوءَ تصرُّفٍ نبَّهه إليه، ونصحه بلطفٍ ولينٍ، حتّى ينشأَ على التَّربيةِ الحسنة والخُلق الجميل، وهذا الَّذي كان عليه نبيُّنا ﷺ مع الغلمان والصِّغار فضلاً عن الكبار؛ فعن أبي حفص عمر بن أبي سلمة ـ ربيب رسول الله ﷺ ـ قال: «**كُنتُ غُلاَمًا فِي حِجْرِ رَسُولِ اللهِ** ﷺ وكانت يدي تطيش في الصَّحْفَة فقال لي رسول الله ﷺ: «**يَا غُلاَمُ! سَمِّ اللهَ وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»؛ **فما زالت تلك طِعْمتي بعدُ**»[8].

❖ أمر الطِّفل بالمعروف ونهيه عن المنكر:

على وليِّ الطِّفل أنْ يُنكر عليه متى ارتكب محظورًا، ويجنِّبه الحرام، ويحميه من المنكر، ويُبعده عنه كالكبير، كما أنَّ عليه أنْ يُعينه على البرِّ والتَّقوى، ولا يُعينه على الإثم والعُدوان، وذلك بتطهير البيت من أجهزة الفساد والانحلال المدمِّرة؛ لأنَّها وسائل تخريب، ومَعاوِل هدم.

وعليه أن يُجنِّب ولده أسباب الانحراف الأخلاقيِّ، بحمايته من مُطالعة القِصص الغراميَّة، والنَّظر في المجلاَّت الخليعة، حتَّى يحافظ على سلامة فطرته، وحُسن أخلاقه. وإذا نهاه عن تصرُّف، أو منعه من منكر، فعليه أنْ يُتبع ذلك ببيان العلَّة والسَّبب، وهذا أدعى للاستجابة، فينشأ الطِّفل على العلم، مُبتعدًا عن الحرام مُنذ الصِّغر، و«مَن شَبَّ على شيء شابَ عليه».

ومَن أراد العبرة، فليتأمَّل في سيرة رسول الله ﷺ في هذا الباب، فقد كان يُروِّض الصِّغار ويدرِّبهم على فعل الطَّاعات، واجتناب المحرَّمات، منذ نعومة أظفارهم؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما تمرةً من تمر الصَّدقة فجعلها في فيه، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**كِخْ كِخْ**»[9] ـ ليطرحها ـ ثمَّ قال: «**أَمَا شَعَرْتَ أَنَّا لاَ نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟!**»[10]، وفي رواية قال: إنَّ رسول ﷺ أُتي بتمر من تمر الصَّدقة، فأمر فيه بأمْر فحمل الحسن أو الحسين على عاتقه فجعل لعابُه يسيل عليه فنظر إليه فإذا هو يلوك تمرة فحرَّك خدَّه وقال: «**أَلْقِهَا يَا بُنَيَّ! أَلْقِهَا يَا بُنَيَّ! أَمَا شَعَرتَ أَنَّ آلَ مُحَمَّدٍ لاَ يَأْكُلُونَ الصَّدَقَةَ؟!**»[11].

وفي هذا الحديث فائدة تربويَّة، وهي أنَّ المؤدِّب يُلقِّن الصَّغير ويُعلِّمه بالقول، ويُتبع ذلك ببيان سبب النَّهي، ودافع التَّأديب، حتَّى يُعرِّفه خطأه فيجتنبه، فإنْ أتى ذلك بالثَّمرة المرجوَّة، وإلاَّ انتقل إلى منعه من المحظور بالفعل؛ يظهر ذلك في الجمع بين روايتي الحديث السَّابق حيث إنَّ الرَّسول ﷺ يكون كلَّم الحسن ـ أوَّلاً ـ بقوله: «**كِخْ كِخْ**» فلمَّا تمادى في ذلك، نزعها من فيه[12].

(6) أخرجه البخاري (6231).
(7) أخرجه البخاري (6898) ومسلم (1669) واللَّفظ له عن رافع بن خديج و سهل ابن أبي حثمة رضي الله عنهما، وفيه قصَّة.
وأخرجه البخاري ـ أيضًا ـ في «الأدب المفرد» (359): باب: يبدأ الكبير بالكلام والسّواك قبل الصَّغير.
(8) أخرجه البخاري (5061) ومسلم (2022).

(9) بفتح الكاف وتسكين الخاء، ويجوز كسرها مع التَّنوين، وهي كلمة يُزجر بها الصِّبيان عن المستقذرات. انظر: «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج» للنَّووي (175/7).
(10) أخرجه البخاري (1491) ومسلم (1069).
(11) أخرجه أحمد في «المسند» (9267).
(12) انظر: «مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» للمباركفوي (214/6).

ويؤخذ منه - أيضًا -: أنَّ «الصَّغير لا يُقرُّه وليُّه على التقاط ما لا يجوز أكله، أو على أكل ما لا يجوز له في حكمه شرعًا، وإنْ كان صغيرًا ليس عليه تكليف؛ لأنَّ وليّه مسؤول عنه»[13].

قال ابن حجر: «وفي الحديث: ...جواز إدخال الأطفال المساجد، وتأديبهم بما ينفعهم، ومنعهم ممَّا يضرُّهم، ومن تناول المحرَّمات - وإنْ كانوا غير مكلَّفين - ليتدرَّبوا بذلك.

واستنبط بعضهم منه: منْع وليِّ الصَّغيرة - إذا اعتدّت - من الزِّينة، وفيه الإعلام بسبب النَّهي، ومخاطبة من لا يميِّز لقصد إسماع مَن يميِّز؛ لأنَّ الحسن إذ ذاك كان طفلاً»[14].

ومن هذا الباب - أيضًا - منْع الصِّغار من الخروج من البيت عند غروب الشَّمس، خشية إصابتهم بأذى؛ لأنَّها ساعة تنتشر فيها الشَّياطين؛ فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ جُنحُ اللَّيْلِ - أو أمسيتم - فكُفُّوا صبيانكم، فإنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ فَخَلُّوهُمْ...» الحديث[15] وفي رواية: «**وَاكْفِتُوا صِبْيَانَكُم عِندَ العِشَاءِ فَإِنَّ لِلجِنِّ انتِشَارًا وَخَطْفَةً**»[16].

ومن واجب الوليِّ أن يبغِّض لأبنائه مزامير الشَّيطان، كما أنَّ عليه أنْ يتلف كلَّ آلة طربٍ وُجدت عندهم، ولا يسمح لهم باستعمالها، ولا تأخذه في ذلك رأفةٌ بهم؛ فعن أشعث بن عبد الرَّحمن بن زبيد قال: «رأيتُ جدِّي ورأى جاريةً معها زمَّارة من قصب، فأخذها وشقَّها، ورأى جارية معها دفٌّ، فأخذه فكسره»[17].

وعن أبي حفص الأمويّ عمر بن عبد الله قال: «كتب عمر ابن عبد العزيز إلى مؤدِّب ولده - سهل مولاه -: ...وليكن أوَّلَ ما يعتقدون من أدبك: بغضُ الملاهي الَّتي بدؤها من الشَّيطان وعاقبتها سخط الرَّحمن، فإنَّه بلغني عن الثِّقات من حملة العلم أنَّ حُضور المعازف واستماع الأغاني واللَّهج بهما يُنبت النِّفاق في القلب كما يُنبت العُشبَ الماءُ»[18].

(13) أفاده الشَّيخ عطية سالم رحمه الله في «شرح بلوغ المرام» (دروس صوتيَّة مفرَّغة).
(14) «فتح الباري» (3/355).
(15) أخرجه البخاري (3304) ومسلم (2012).
(16) أخرجه البخاري (3316).
(17) رواه أبو نُعيم الأصبهاني في «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (5/32).
(18) رواه ابن أبي الدُّنيا في «ذمِّ الملاهي» (51).

ولا يفوتني أن أُذكِّر المربِّين، سواء كانوا آباء أو غيرهم، باللُّطف والرَّأفة والرِّفق بالصِّبيان في تعليمهم وإرشادهم، وعدم تضخيم أخطائهم، وهو ما كان عليه سيِّد البشر ﷺ مع النَّاس، بشهادة مَن نَصحهم و وجَّههم.

وهذه الشَّفقة والرِّفق في تعليم الصَّغير تُكسب محبَّته لمربِّيه ووُدَّه، وبالتَّالي قَبول إرشاده ونُصحه، إذْ «المُحبُّ لمن يحبُّ مُطيع» بخلاف التَّعنيف الدَّائم، والغلظة المستمرَّة، فإنَّها تُسبِّب نفورًا وكراهية، وبالتَّالي عدم قبول النُّصح، وترك الامتثال له.



❖ مراقبة لباس الصَّغير ومظهره، وتعويد البنت على التَّستُّر والحشمة، ومنعها من التَّبرُّج:

ينبغي للوالد أنْ ينهى كلَّ جنس - من أبنائه - عن التَّشبُّه بالجنس الآخر، فلا يسمح للإناث بارتداء لباس الذُّكور، ولا يأذن للذُّكور بأن يَظهروا في زيِّ الإناث؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبسَةَ المَرْأَةِ وَالمَرْأَةَ تَلْبَسُ لِبسَةَ الرَّجُلِ**»[19].

كما أنَّ عليه أن لا يسمح للذُّكور - من أبنائه - بلُبس الحرير والذَّهب، وإن لم يكونوا مكلَّفين؛ فعن سعد بن إبراهيم عن أبيه قال: «دخل عبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنه ومعه ابنٌ له على عمر رضي الله عنه عليه قميصُ حرير فشقَّ القميص»[20].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «كنَّا ننزعه عن الغلمان، ونتركه على الجواري»[21] - يعني: الحرير -.

(19) أخرجه أبو داود (4098) وهو في «صحيح سُنن أبي داود» للألباني (3454).
(20) رواه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (24657).
(21) رواه أبو داود (4059) وهو في «صحيح سُنن أبي داود» للألباني (3424).

قال الإمام مالك رحمه الله: «أكره لُبس الحرير والذَّهب للصِّبيان الذُّكور، كما أكرهه للرِّجال»[22].

وقال ابن عبد البرِّ: «وأمَّا التَّختُّم بالذَّهب فلا أعلم أحدًا من أئمَّة الفتوى أجاز ذلك للرِّجال، وكلُّهم يكرهونه لذكور الصِّبيان؛ لأنَّ الآباء مُتعبَّدون فيهم»[23].

وجاء في مُتون كُتب مذهب أبي حنيفة: «ويُكره إلباس الصَّبيِّ ذهبًا أو حريرًا»: لئلاَّ يعتاده، والإثم على المُلبِس، كالخمر فإنَّ سَقْيه الصَّبي حرام كشُربها، وكذا الميتة والدَّم؛ ألا ترى أنَّه يُؤمر بالصَّوم والصَّلاة ويُنهى عن شرب الخمر، ليعتاد فِعل الخير، ويألف ترْك المحرَّمات، فكذلك هذا، والإثم على مَن ألبسه، لإضافة الفعل إليه»[24].

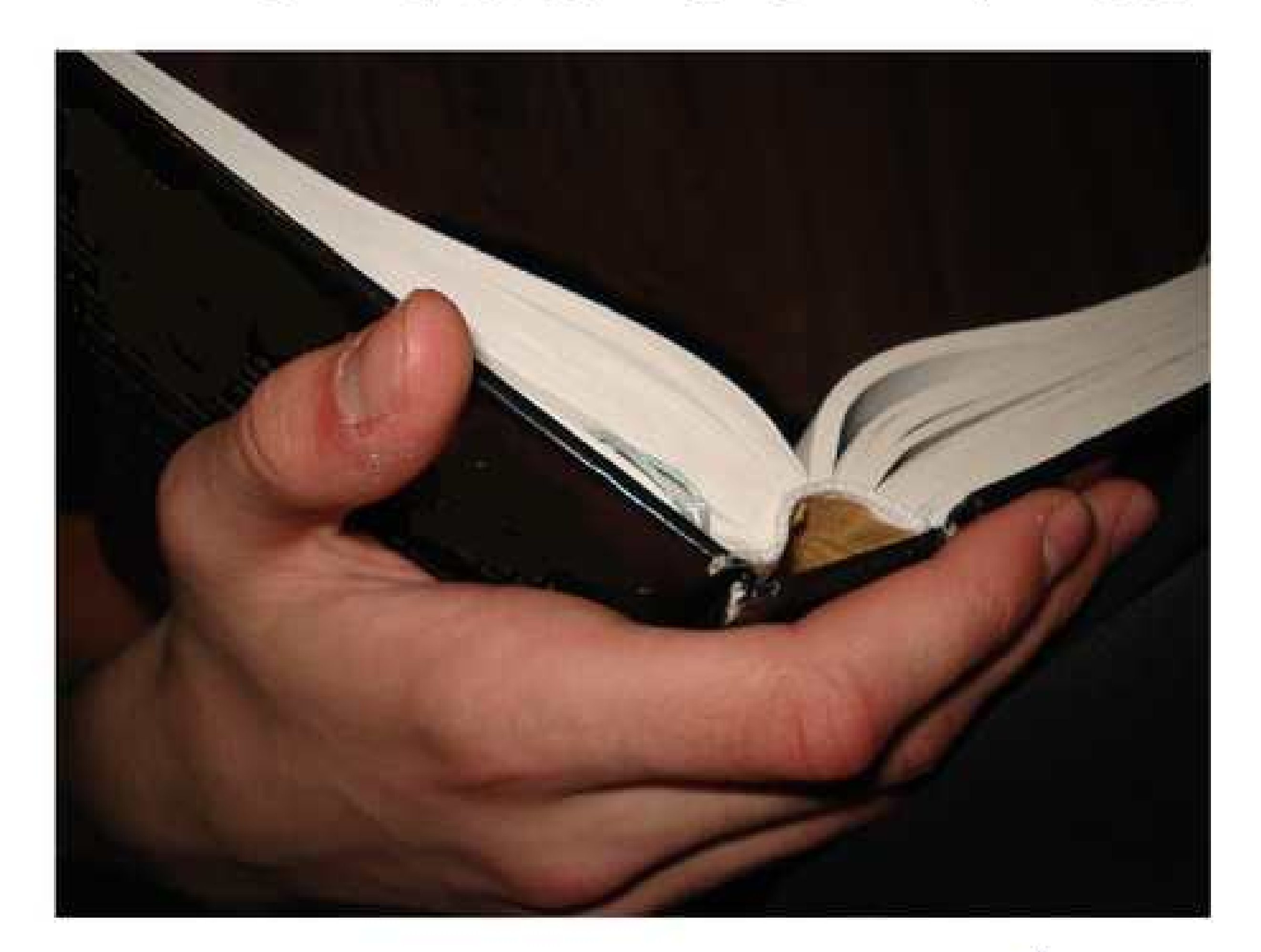
وقال ابن القيِّم: «ويجنِّبه لُبس الحرير؛ فإنَّه مُفسد له، ومخنِّث لطبيعته،... والصَّبيُّ وإن لم يكن مُكلَّفًا، فوليُّه مُكلَّف لا يحلُّ له تمكينه من المحرَّم، فإنَّه يعتاده، ويَعسر فِطامه عنه، وهذا أصحُّ قولي العلماء.

واحتجَّ مَن لم يرَه حرامًا عليه بأنَّه غير مُكلَّف، فلم يحرم لُبسه للحرير كالدَّابَّة، وهذا من أفسد القياس، فإنَّ الصَّبيّ وإن لم يكن مُكلَّفًا، فإنَّه مُستعدٌّ للتَّكليف، ولهذا لا يمكَّن من الصَّلاة بغير وضوء، ولا من الصَّلاة عُريانًا ونجسًا، ولا من شُرب الخمر، والقمار واللِّواط»[25].

وعلى وليِّ أمر الطِّفل أن يُراقب هيئته ومظهره، فلا يأذن له بالتَّشبُّه بالكفَّار والفسَّاق في زيِّهم ولباسهم؛ قال الآجُرِّي رحمه الله: «يجب على الآباء أن يَنهوا أولادهم عن زيِّ الفسَّاق، وعن صُحبة الفسَّاق»[26].

ولا يَسمح له بحلق بعض شعر رأسه دون بعض، وهو ما يُسمَّى بالقَزَع؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ رأى صبيًّا قد حُلق بعضُ شعره وتُرك بعضُه فنهاهم عن ذلك وقال: «**احْلقُوهُ كُلَّهُ أَوِ اتْرُكُوهُ كُلَّهُ**»[27].

ولا يجوز له أن يُلبس ابنته القصير من الثِّياب، حتَّى لا تتعوَّد عليه، وعليه أن ينهاها عن التَّعرِّي والتَّكشُّف؛ لأنَّ هذه التَّصرُّفات تُسبِّب فساد طباع الصَّغير، وتجرُّه إلى الرَّذيلة، بل عليه أن يربِّيها على الاحتشام والعفاف، ويُعوِّدها على الحياء والأخلاق الفاضلة، ويأمرها بأن لا تخرج إلاَّ متحجِّبة، ساترةً عورتَها، خَشية الفتنة، وحتَّى لا تكون سببًا في انتشار الفساد[28].



❖ القُدوة الحسنة:

من المسائل المهمَّة في تنشئة الطِّفل: التَّربية بالقُدوة؛ لذا ينبغي للوالدين أن يكونا صُورة مثاليَّة لأولادهما، في كلِّ ما هو حسن وخير، وعليهما أن يعملا بكلِّ ما يصدر منهما من توجيه وإرشاد، حتَّى لا يكون قولهما مخالفًا لفعلهما؛ فلا قيمةَ للتَّربية، ولا أثر للنَّصيحة، إلاَّ بتحقيق القُدوة الحسنة، إذْ تأثيرها في نفس الطِّفل كبير؛ لأنَّه ينشأ على ما عوَّده عليه والداه ومربُّوه.

قال الشَّاعر:

وينشأُ ناشئُ الفِتيانِ منَّا ... على ما كان عوَّدهُ أبوه
وما دانَ الفتى بحجىً ولكن ... يُعوِّده التَّديُّنَ أقربوه

(22) «المدوَّنة الكبرى» (1/462).
(23) «الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار» (8/303).
(24) انظر: «الاختيار لتعليل المختار» لعبد الله بن محمود الموصلي (4/170)، «مجمع الأنهر في شرح مُلتقى الأبحر» لشيخي زاده (4/198 ـ 199).
(25) «تُحفة المولود بأحكام المولود» (242).
(26) «ذمُّ اللِّواط» (24).
(27) أخرجه أبو داود (4195)، والنَّسائي (5048)، وهو في «الصحيحة» (1123) للألباني.
قال ابن القيِّم في «تحفة المودود بأحكام المولود» (100): «والقزع أربعة أنواع:
ـ أحدها: أن يحلق من رأسه مواضع، من ها هنا، وها هنا، مأخوذ من تقزُّع السَّحاب، وهو تقطُّعه.
ـ الثَّاني: أن يحلق وسطه، ويترك جوانبه، كما يفعله شمامسة النَّصارى.
ـ الثَّالث: أن يحلق جوانبه، ويترك وسطه، كما يفعله كثير من الأوباش والسفل.
ـ الرَّابع: أن يحلق مقدَّمه، ويترك مؤخَّره.
وهذا كلُّه من القزع، والله أعلم».
(28) انظر: الفتوى رقم (4246) من «فتاوى اللَّجنة الدَّائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء».

فكثيرًا ما يُقلِّد الصِّغار آباءهم، حتَّى إنَّهم يطبعون فيهم أحسن الآثار، ويغرسون فيهم أفضل الخصال، عن طريق ما يشاهدون ويلاحظون؛ فهذا عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما يروي عن نفسه - وهو غلام - حادثةً رسخت في ذهنه وطبعته على الخير وأداء الصَّلاة، لما كان يراه من صلاة رسول الله ﷺ فيقول: «بتُّ عند خالتي ميمونة ليلة، فنام النَّبيُّ ﷺ فلمَّا كان في بعض اللَّيل قام رسول الله ﷺ فتوضَّأ من شنٍّ مُعلَّق وُضوءً خفيفًا ثمَّ قام يصلِّي فقمتُ فتوضَّأتُ نحوًا ممَّا توضَّأ ثمَّ جئتُ فقمتُ عن يساره فحوَّلني فجعلني عن يمينه ثمَّ صلَّى ما شاء الله ...» الحديث[29].

وقال أبو سعيد الأشج: حدَّثنا إبراهيم بن وكيع قال: «كان أبي يصلِّي فلا يبقى في دارنا أحد إلاَّ صلَّى حتَّى جارية لنا سوداء»[30].

وقال الشَّافعي رحمه الله لأبي عبد الصَّمد - مُؤدِّب أولاد هارون الرَّشيد -: «ليكن أوَّل ما تبدأ به من إصلاح أولاد أمير المؤمنين إصلاح نفسك، فإنَّ أعينهم معقودة بعينك، فالحسَن عندهم ما تستحسنه، والقبيح عندهم ما تركته»[31].

ومن الأخطاء الشَّائعة: اقتراف الآثام و فعل المنكرات،كسبّ الله وسبّ الدّين، والتّلفّظ بالكلام الفاحش البذيء، ومشاهدة الأفلام ومتابعة المسلسلات السّاقطة، وأمام مرأى ومسمع الأولاد، وتربيتهم على أرذل الأخلاق وسيِّء العبارات، من خلال ترديد الآباء لها، ممَّا يجعل من الوالدين قُدوة سيِّئة لأبنائهم، سواء علموا ذلك أم جهلوه؛ فعن عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال: «دعتني أمِّي يومًا ورسولُ الله ﷺ قاعد في بيتنا، فقالت: ها تعالَ أعطيك؛ فقال لها رسول الله ﷺ: «**وَمَا أَرَدتِ أَن تُعْطيه؟**» قالت: أعطيه تمرًا؛ فقال لها رسول الله ﷺ: «**أَمَا إِنَّكِ لَو لَم تُعطيه شَيئًا كُتبَتْ عَلَيْك كَذْبَةٌ**»[32].

«وهذا يدلُّ على أنَّ الكذب على الصِّغار يُعتبر كذبًا، وأنَّه لا يُقال إنَّ هذا الأمر سهل، وإنَّ الكذب إنَّما يضرُّ إذا كان على الكبار، بل المطلوب أن يُعوَّد الصِّغار على الصِّدق، وألاّ يُعوَّدوا على الكذب»[33].

وعليه ينبغي أن نعلم أنَّ هؤلاء الأولاد أمانة في أعناقنا، وأنَّ المفرِّط في هذه الأمانة آثمٌ عاصٍ لله تعالى، يحمل وِزر معصيته أمام ربِّه يوم القيامة.

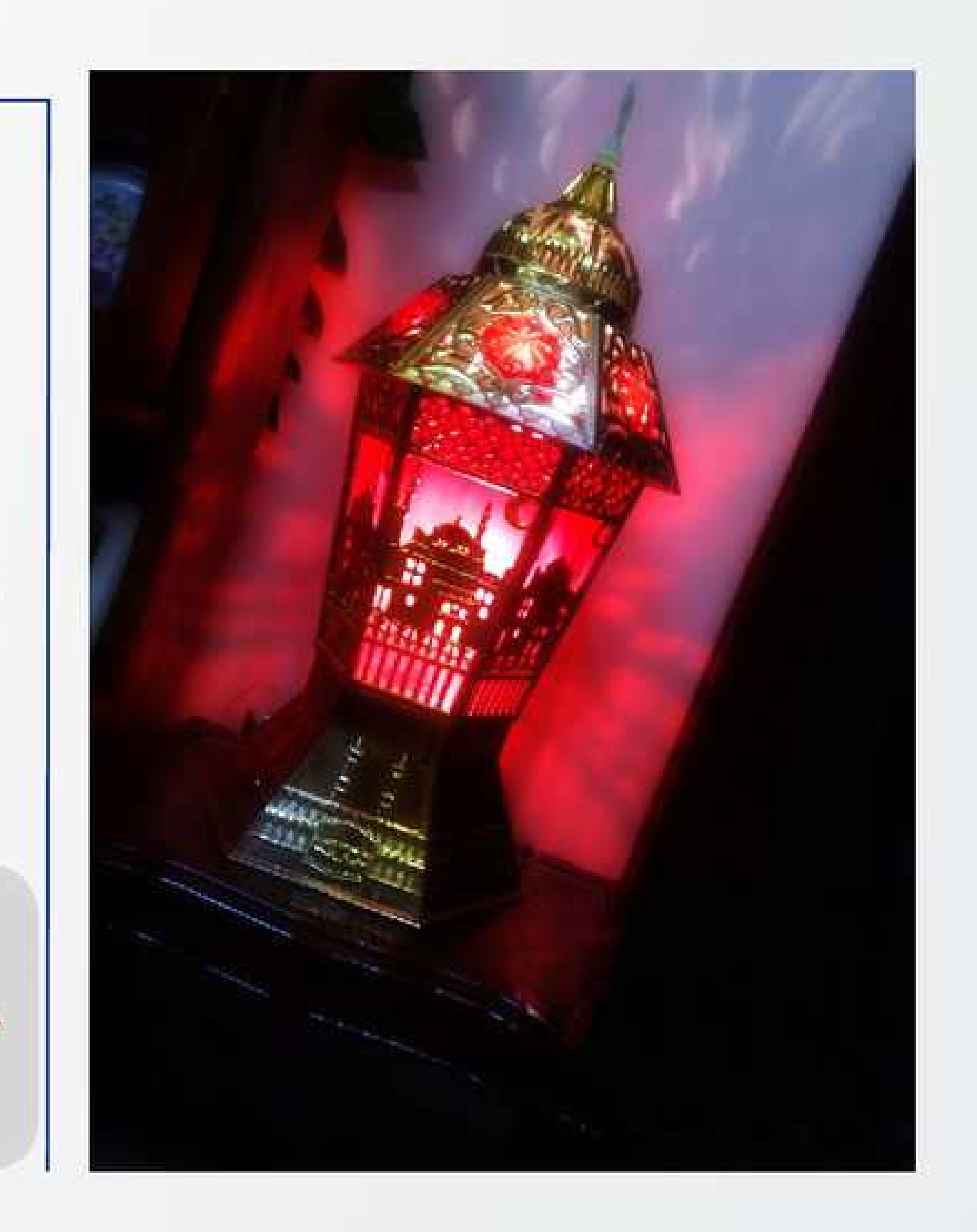
ولنعلم - أيضًا - أنَّ «من اتَّقى الله في أولاده اتَّقَوا الله فيه، ومن ضيَّع حقَّ أولاده ضيَّعوا حقَّه إذا احتاج إليهم»[34] و«الجزاء مِن جنس العمل».

نسأل الله تعالى أن يرزقنا ذرِّيَّةً طيِّبةً، ويُعيننا على تربيتها تربية صالحة، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

(29) رواه البخاري (859).
(30) انظر: «سير أعلام النُّبلاء» للذَّهبي (156/17).
(31) رواه أبو نعيم في «الحلية» (147/9)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (187/3).

(32) أخرجه أبو داود (4991)، وهو في «الصحيحة» (748) للألباني.
(33) قاله الشَّيخ عبد المحسن العبَّاد في «شرح سُنن أبي داود».
(34) قاله الشَّيخ ابن عثيمين رحمه الله في «شرح رياض الصَّالحين» (200/2).

عمر الحاج مسعود



النِّبراس في تصحيح كلام النَّاس

أُقدّم لإخواني . قرَّاء مجلَّة الإصلاح الغرَّاء . ضمنَ سلسلة «النِّبراس» بعضَ العبارات الشَّائعة، مع التَّوجيه والتَّصحيح، والله من وراء القصد وهو يهدي السَّبيل.

كُلْ ما يَعجبك، والْبَسْ ما يَعجَبْ النَّاس

يُقصد بهذه العبارة موافقةُ عرف أهل البلد في لباسهم وزيِّهم، وعدم الخروج على عادتهم، بخلاف الأكل فإنَّه أمر خاصٌّ، ولكلٍّ رغبتُه واختيارُه

. **كُلْ مَا يَعْجِبُكَ**: هذا الكلام صحيح ولا إشكال فيه، فيجوز للإنسان أن يختار ما شاء من المأكولات والمشروبات على أن تكون من الحلال الطيِّب الَّذي لا ضرر فيه ولا إسراف، قال الله تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة]، وقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف]، وقال رسول الله ﷺ: «**كُلُوا واشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا والْبَسُوا في غَيْرِ مَخيلَة وَلاَ سَرَف**»[1].

. **وَالْبَسْ مَا يَعْجَبْ النَّاسْ**: هذا الكلام فيه تفصيل: فإن كان المقصودُ منه مراعاةَ عادات أهل البلد، وموافقةَ أعرافهم الَّتي لا تخالف الشَّرع فهذا أمر مطلوب، اجتنابًا للمخالفة وابتعادًا عن الشُّهرة.

وسنَّة نبيِّنا محمَّد ﷺ «تقتضي أن يلبَس الرَّجل ويَطعَم ممَّا يسَّره الله ببلده من الطَّعام واللِّباس، وهذا يتنوَّع بتنوُّع الأمصار»[2]، ومن القواعد الفقهيَّة في هذا الباب «العادة محكَّمة».

سئل الإمام مالك رحمه الله عن الَّذي يعتم بالعمامة، ولا يجعلها من تحت حلقه، فأنكرها وقال: «ذلك من عمل القبط، وليست من عمل النَّاس، إلاَّ أن تكون عمامةً قصيرةً لا تبلغ»[3]، فيلاحظ أنَّ الإمام مالكًا رحمه الله أنكر هذه الكيفيَّة في لُبس العمامة لكونها مخالفةً لعمل النَّاس وعادتهم، قال ابن بطَّال: «فالَّذي ينبغي للرَّجل أن يتزيَّا في كلِّ زمانٍ بزيِّ أهله ما لم يكن إثمًا؛ لأنَّ مخالفة النَّاس في زيِّهم ضربٌ من الشُّهرة»[4]، ورأى الإمام أحمد رحمه الله رجلاً لابسًا بُرْدًا مُخَطَّطًا بياضًا وسوادًا، فقال: «ضَعْ هذا، والْبَسْ لِبَاسَ أَهْلِ بَلَدِك، وقال: لَيْسَ هو بحرام، ولو كنت بمكَّةَ أو المدينَةِ لم أَعِبْ عليك»؛ لأنَّه لباسهم هناك[5]، فأمره بموافقة أهل

(1) رواه أحمد (6708)، والنَّسائي (2559)، وهو حسن، انظر «صحيح الجامع» (4505).

(2) قاله شيخُ الإسلام ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (22/311).
(3) انظر «عقد الجواهر الثَّمينة» لابن شاس (3/1291).
(4) «شرح البخاري» (9/123).
(5) «غذاء الألباب» للسَّفَّاريني (2/126).

بلده في لباسهم، واصطنع أيوب السَّخْتِيَانيّ مرَّةً نعلين على حَذْوِ نعليْ النَّبيِّ ﷺ، فلبسهما أيَّامًا ثمَّ خلعهما وقال: «لم أر النَّاس يَلبَسونهما»[6]، هذا هو فقه سلفنا الصَّالح وهديُهم.

وأمَّا إن كان المقصودُ موافقةَ النَّاس فيما اعتادوه من ألبسة ولو كانت مخالفةً للشَّرع فالعبارة خاطئة، إذ أنَّ للِّباس أحكامًا وشروطًا شرعيَّة ينبغي مراعاتها، والعادة إنَّما يُرجع إليها «فيما لا ضبط له شرعًا»[7].

من هذه الشُّروط أن يكون ساترًا للعورة، وأن لا يشبه لباسَ الكفَّار، وأن لا يشبه لباسُ المرأة لباسَ الرَّجل، ولا لباسُ الرَّجل لباسَ المرأة، إلى غير ذلك من الشُّروط المعروفة، غير أنَّ كثيرًا من النَّاس لا يراعونها، ولا يبالون بمخالفتها، مع تنوُّع أهوائهم وتباين مشاربهم في هذا الباب، فقد لبسوا في هذه الحقَب الأخيرة ـ رجالاً ونساءً ـ ألبسةً تُضادُّ العقلَ والفطرةَ وتنافي الحياءَ والحِشْمةَ فضلاً عن شريعة الإسلام السَّمْحَة، فلبِسُوا ما هو خاصٌّ بالكفَّار، ولبِسوا القصير والضيِّق والكاشف للسَّوأة، وقلَّدوا اليهود والنَّصارى والمفتونين، من حيث يشعرون أو من حيث لا يشعرون، وينكرون على من وافق شرع الله وخالفهم في ذلك بدعوى أنَّه لا يلبَسُ ما يُعجِبُ النَّاسَ وما يفشو بينهم.

إنَّ فشوَّ الشَّيء واعتيادَ النَّاس له ليس دليلاً على جوازه، فقد يكون عرفًا فاسدًا لمخالفته شرعَ الله عز وجل، مثل كثير من حُجُب النِّساء العصريَّة اللاَّصقة والضَّيِّقة، المُحَجِّمة للعورة والمُشَخِّصة للصَّدر والعَجيزة، والَّتي لا تزداد بها النِّساء إلاَّ فتنةً وفسادًا وإفسادًا، ومثل إسبال الرَّجل الثَّوبَ تحت الكعبين، فقد اعتاده النَّاس وأَلِفُوه ـ وهو خاصٌّ بالنِّساء ـ، قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَا أَسفَلَ مِنَ الكَعبَينِ مِنَ الإِزَارِ فَفِي النَّارِ**»[8].

قال أبو بكر الطُّرْطُوشي المالكي رحمه الله: «وإسبال الثَّوب تحت الكعبين شائع في بلاد الإسلام، وهو حرام لا يجوز»[9].

فينبغي للعاقل أن يحذرَ كلَّ ذلك ويجتنبَه، ويلبَس ما يوافق الشَّرعَ ولا يخرج عن العرف المعتبر.

(6) انظر: «تفسير ابن كثير» (6/343).
(7) «المنثور في القواعد» للزَّركشي (2/356).
(8) رواه البخاري (5787).
(9) «الحوادث والبدع» (73).

كِي شَابْ عَلْقُلُو حْجَابْ

«شابْ» أي كَبِر واشتعل رأسُه شَيْبًا، والمقصود بالحجاب التَّميمة أو الحرز يتعوَّذ به، أو يعلَّق على المرضى والصِّبيان، رجاءَ دفع الضُّرِّ أو جلب النَّفع.

تضرب هذه العبارة مثلاً لكلٍّ من طلب شيئًا أو فعله في وقت ما وأهمله قبل ذلك، مثل الإحسان إلى الوالدين، فهو واجب على الأولاد في جميع الأوقات، لكن قد يُتركان ويُهجران حتَّى يُقْعِدَهما المرضُ أو العجزُ أو الكِبَرُ، فحينئذ يُهرول إليهما الأولاد، فهذا مطلوب ونافع، لكنَّه قبل ذلك يكون أَطْلَبَ وأنفعَ، كما تضرب مثلاً للطَّاعن في السِّنِّ الَّذي يريد أن يتعلَّم علمًا أو صناعةً أو رياضةً أو أيَّ شيء آخر، وقد كان اللاَّئق به أن يطلبه في الصِّغَر والشَّباب.

فتذْكر هذه العبارة لهؤلاء تنبيهًا على أنَّ الوقت قد فات، وأنَّ الانتفاع والنَّفع لا يقعان موقعهما، فكما أنَّ الحُجُب لا تنفع بعد الكِبَر وفوات الأوان، والكبير لا حاجة له فيها؛ لأنَّه لا يُعَايَن ـ مثلاً ـ مثلَ الصَّغير، فكذلك لا ينفع التَّعلُّم والعمل بعد فوات الوقت، وإنَّما ينفعان في الوقت اللاَّئق بهما.

والعبارة فيها تذكير بأنَّ العمل والعلم وفعل الخير أمورٌ ينبغي أن تكون في أوقاتها المطلوبة، وهذا حقٌّ، فينبغي للعبد أن يحرص على ما ينفعه من أمور دينه ودنياه، قال رسول الله ﷺ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِالله وَلاَ تَعْجِزْ**»[10]، وعن أبي إسحاق عن رجل من أصحاب النَّبيِّ ﷺ قال: «**لاَ تُؤَخِّرْ عَمَلَ اليَوْمِ لِغَدٍ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا فِي غَدٍ**»[11].

لكن قد يراد بها ويفهم منها التَّثبيطُ عن التَّعلُّم والاستفادة وفعل الخير والرُّجوع إلى الرُّشد والصواب، وأنَّ ذلك لا ينفع بعد وقته المطلوب، وهذا باطل.

فالكبير الطَّاعن في السِّنِّ قد يتعلَّم ويستفيد، وقد طلب جماعةٌ من العلماء العلمَ في الكِبَر.

قال الإمام البخاري رحمه الله في كتاب العلم من «صحيحه»:

(10) رواه مسلم (2664).
(11) رواه ابن أبي شيبة (36396).

«بابُ الاغْتِبَاطِ في العِلْمِ والحِكْمَةِ»

وقال عمر: «تفقَّهوا قبل أن تسوَّدوا»[12]، قال أبو عبد الله ـ أي: البخاري ـ: وبعد أن تُسوَّدوا، وقد تعلَّم أصحاب النَّبيِّ ﷺ في كبر سنِّهم».

ونرى اليوم ـ بفضل الله ـ بعض الأمَّهات الكبيرات يتعلَّمن في المساجد، ويحفظن أجزاءً من القرآن الكريم وجملةً من الأحاديث والأذكار النَّبويَّة، ويتعلَّمن الكتابة والقراءة، فلِمَ العجز واليأس والتَّثبيط؟

نعم؛ أخذ العلم في الصِّغَر أفضلُ وأثبتُ كما جاء عن الحسن البصري رحمه الله أنَّه قال: «التَّعلُّم في الصِّغر كالنَّقش في الحجر»[13].

وقد يكون الإنسان عاصيًا لوالديه مسرفًا على نفسه، ثمَّ يمنُّ الله عليه بالتَّوبة فيتوب، ويستدرك ما فات قبل الممات، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [سورة الجمعة].

وقد يكون المرء عاجزًا كسولاً عن طلب ما ينفعه حتَّى يفوته خيرٌ كثيرٌ، ثمَّ يستيقظ بأَخَرَةٍ بتوفيق الله تعالى، وقد يصل إلى ما لم يصل إليه من سبقه.

ويُفهم من العبارة أنَّ التَّميمة تنفع في حينها، وتَحْجُب ـ أي تستر وتمنع ـ من المرض والعين والسِّحر كما هو اعتقاد طائفة من النَّاس، ولهذا سمَّوها حجابًا، وهذا اعتقاد باطل، قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَن عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَد أَشرَكَ**»[14]، فجعل عليه الصَّلاة والسَّلام تعليق التَّميمة ـ وهي الحجاب ـ من الشِّرك، وهذا الشِّرك قد يكون أكبر إذا اعتُقِد أنَّها نافعة بذاتها، وأمَّا إذا جُعِلت سببًا فقط مع اعتقاد أنَّ الله هو النَّافع الضَّار، فإنَّها تكون من الشِّرك الأصغر؛ لأنَّ الله لم يجعلها سببًا لا شرعًا ولا قدَرًا.

إنَّ العاقل المُوحِّد يجتنب الشِّرك كبيرَه وصغيرَه؛ لأنَّه أعظمُ الظُّلم وأكبرُ الإثم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [سورة النساء]، وقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [سورة الكهف].

(12) وصله الدَّارمي (256)، وابن أبي شيبة (26640) وإسناده صحيح.
(13) أخرجه الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (822).
(14) رواه أحمد (17422) وهو صحيح، انظر: «الصَّحيحة» (492).

شْوِيَه للرْوِيحَة وشْوِيَه للْوِيحَة

شويه: قليلاً، الرّويحة: تصغير الرُّوح، اللّويحة: الجسد، والمقصود بهذه العبارة: اجعل ساعةً وشيئًا للرُّوح، أي: للذِّكر والعبادة والآخرة، وساعةً وشيئًا للجسد، أي: للرَّاحة والاستمتاع والاستجمام، وربَّما يقولون: «شوية لربِّي وشوية لقلبي»، أو «ساعة لربِّي وساعة لقلبي».

وفي هذه العبارة جانبان: حقٌّ وباطل.

فالجانب الَّذي هو حقٌّ: أن يكون المقصودُ جعلَ ساعة للتَّرويح عن النَّفس بالمباحات والطيِّبات الَّتي أحلَّها الله تعالى، مثل اللَّهو المباح والاستجمام والمداعبة والمصارعة، والانبساط إلى الأهل والأولاد...

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الأعراف]، وعن حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدي رضي الله عنه قال: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قُلتُ: نافق حنظلةُ! قال: سبحان الله ما تقول؟!، قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكِّرنا بالنَّار والجنَّة حتَّى كأنَّا رَأْيُ عَينٍ فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضَّيعات فنسينا كثيرًا؛ قال أبو بكرٍ: فوالله إنَّا لنَلقَى مثلَ هذا، فانطلقتُ أنا وأبو بكرٍ حتَّى دخلنا على رسول الله ﷺ قلت: نَافق حنظلةُ يا رسولَ الله! فقال رسولُ الله ﷺ: «**وَمَا ذَاكَ؟**» قلتُ: يا رسولَ الله! نكون عندك تُذَكِّرُنا بالنَّار والجنَّة حتَّى كأنَّا رَأْيُ عَينٍ فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضَّيعات نسينا كثيرًا؛ فقال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذي نَفسي بيَدِه إن لَو تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عندي وَفي الذِّكر لَصَافَحَتكُمُ المَلَائكَةُ عَلَى فُرُشكُم وَفي طُرُقكُم وَلَكن يَا حَنظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً**» ثَلَاثَ مَـرَّات[15]، يعني ساعةً للعلم والعبادة والذِّكر، وساعةً لطلب الرِّزق وراحة النَّفس وتنشيطها بالوسائل المباحة ومؤانسة الأهل والولد والضَّيف والإخوان وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه؛ لأنَّه لا يمكن

(15) رواه مسلم (2750).

للإنسان أن يكون دائما في حالةٍ واحدةٍ من النَّشاط والهمَّة في العبادة وطلب العلم.

وعن عبد الله بن عَمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا عبدَ الله! ألم أُخبَر أنَّك تَصومُ النَّهارَ وَتَقومُ اللَّيْلَ**» فقلتُ: بلى يا رسولَ الله؛ قال: «**فَلاَ تَفعَل، صُم وَأَفطِر وَقُم وَنَم، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَينِكَ عَلَيكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوجِكَ عَلَيكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَورِكَ عَلَيكَ حَقًّا**»[16].

وهديُ رسول الله ﷺ في هذا الباب خيرُ الهدي وأحسنُه وأفضلُه، فقد سابق بين الخيل، وسابق عائشة رضي الله عنها فسبقها، وصارع رُكانة رضي الله عنه فصرعه، وأمر بتعلُّم الرِّماية، وكان يمازح أهله وأصحابه رضي الله عنهم غير أنَّه ﷺ لا يقول إلاَّ حقًّا، وأذن للحبشة في اللَّعب بالحِراب، ولحسَّان بن ثابت رضي الله عنه في قول الشِّعر في مسجده.

ويوم لعب الحبشة قال رسول الله ﷺ: «**لِتَعلَمَ يَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فُسحَةً إِنِّي أُرسِلتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمحَةٍ**»[17].

قال ابن جماعة رحمه الله عن المتَعلِّم:

«ولا بأس أن يريح نفسه وقلبه وذهنه وبصره إذا كَلَّ شيءٌ من ذلك أو ضعف بتنزُّه وتفرُّج في المستنزهات بحيث يعود إلى حاله ولا يضيع عليه زمانه، ولا بأس بمعاناة المشي ورياضة البدن به، فقد قيل: إنَّه يُنعش الحرارة ويُذيب فضول الأخلاط ويُنشِّط البدن... وكان بعض أكابر العلماء يجمع أصحابه في بعض أماكن التَّنزُّه في بعض أيَّام السَّنَة ويتمازحون بما لا ضرر عليهم في دينٍ ولا عرضٍ»[18].

فكلُّ ما سبق لا بأس به ما دام منضبطًا بالضَّوابط الشَّرعيَّة، لكن ينبغي أن لا يصير عادةً وسَجِيَّةً، لئلاَّ تصبحَ حياةُ المسلم كلُّها لعبًا ولهوًا.

والجانب الثَّاني الَّذي هو باطل: أن يكون المقصودُ من العبارة - وهو ما يريده قوم - انتهاكَ الحرمات والانغماسَ في الشَّهوات والاسترسالَ إلى الملذَّات، دون قيد أو ضابط، على حدِّ قول القائل:

ولله منِّي جانبٌ لا أضيِّعُه ... وللَّهو منِّي والخَلاعَة جانبُ

فلهذا يفشو في ولائمهم وحفلاتهم واجتماعاتهم وأسفارهم ونزهاتهم التَّبرُّجُ والعُريُ والاختلاط والمعازف والمجون، ويهدرون السَّاعات في شبكات ومواقع الفساد والنَّظر إلى الأفلام والمسلسلات، ويضيِّعون الأعمار في المغالبات الجالبة للعداوة والبغضاء الصَّادَّة عن ذكر الله وعن الصَّلاة، ثمَّ إذا نصحهم ناصحٌ ووعظهم واعظ، قالوا: أنت متشدِّد ومتَزَمِّت ومتنطِّع، والدِّينُ يُسر، وساعة وساعةً، ما نريد إلاَّ التَّرويحَ عن أنفسنا، وإزالةَ الملل والسَّآمة عنها، وإعطاءَها نصيبًا من الرَّاحة والانبساط.

فإذا كان هذا هو المقصود بقولهم: شوية لقلبي أو ساعة لقلبي، كانت تلك السَّاعة حظَّ الشَّيطان لما فيها من عصيان للرَّحمن، وتعدٍّ لحدوده وانتهاك لحرماته.

إنَّه ينبغي أن تكون حياةُ العبد كلُّها لله عز وجل، وساعاتُه كلُّها لمولاه، قال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [سورة الأنعام]، وقال: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [سورة العصر].

وإذا استعان بالمباحات على مرضاة ربِّه، واحتسب أجرَها عليه، كان له ذلك إن شاء الله، قال الصَّحابيُّ الجليلُ معاذُ ابنُ جبل رضي الله عنه: «...فأحتسبُ نَومتي كما أحتَسبُ قَومتي»[19]، و«المباحات يؤجر عليها بالنِّيَّة إذا صارت وسائل للمقاصد الواجبة أو المندوبة أو تكميلاً لشيءٍ منهما»[20].

والله الموفِّق، لا إله إلاَّ هو ولا ربَّ سواه، والحمد لله ربِّ العالمين.

□□□

(16) رواه البخاري (1975)، ومسلم (1159).

(17) أخرجه أحمد (24855)، وقال الألباني رحمه الله في «الصَّحيحة» (443/4): «وهذا إسناد جيِّد».

(18) «تذكرة السَّامع والمتكلِّم» (180 - 181).

(19) أخرجه البخاري (4341) و (4342).

(20) قاله ابن حجر في «الفتح» (275/12).



واحة الإصلاح

إعداد: أسرة التحرير

الحزن والإشفاق

قال إبراهيم التَّيمي:

«ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النَّار؛ لأنَّ أهل الجنَّة قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: 34].

وينبغي لمن لم يشفق أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنَّة؛ لأنَّهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الطور]».

[«حلية الأولياء» (215/4)]

فهم السلف للقرآن

«القرآن لا يأتي بمعجزاته، ولا يؤتي آثاره في إصلاح النُّفوس إلاَّ إذا تولَّته بالفهم عقولٌ كعقول السَّلف، وتولَّته بالتَّطبيق العملي نفوسٌ سامية، وهمم بعيدة كنفوسهم وهممهم، أمَّا انتشاره بين المسلمين بهذه الصُّورة الجافَّة من الحفظ المجرَّد، وبهذا النَّمط السَّخيف من الفهم السَّطحي، وبهذا الأسلوب التَّقليدي من التَّفسير اللَّفظي ـ فإنَّه لا يفيدهم شيئًا ولا يفيد بهم شيئًا!».

[«آثار البشير الإبراهيمي» (249/2)]

الموفَّق

«ينبغي للموفَّق أن لا ينظر إلى زينة الدُّنيا نظرة المعجب المفتون، وأن يقنع برزق ربِّه، وأن يتعوَّض ممَّا مُنِع منه من الدُّنيا بزاد التَّقوى الَّذي هو عبادة الله واللَّهج بذكره».

[«فتح الرَّحيم الملك العلاَّم» للسَّعدي (ص211)]

أثر القرآن

«ما كان الصَّدر الأوَّل من سلفنا صالحًا بالجبلَّة والطَّبع، فالرَّعيل الأوَّل منهم ـ وهم الصَّحابة ـ كانوا في جاهليَّة جهلاء كبقيَّة العرب، وإنَّما أصلحهم القرآن لمَّا استمسكوا بعروته، واهتدوا بهديه، ووقفوا عند حدوده، وحكَّموه في أنفسهم... فبذلك أصبحوا صالحين مصلحين، سادةً في غير جبرية، قادةً في غير عنف».

[«آثار البشير الإبراهيمي» (227/4)]



بريد القراء

ردود قصيرة:

■ نشكر كثيرا الأخ المكرم يوسف صغور ـ وفقه الله ـ على منظومته النُّونية الجميلة في سرد فضائل الذِّكر، المأخوذة من كتاب «الوابل الصَّيِّب» للإمام ابن القيِّم رحمه الله، وهي بعنوان «إرشاد الفكر لفضائل الذِّكر»، وقد فاقت الثمانين بيتًا، واستهلها بقوله:

الحمد لله العظيم الشَّان — المستحقّ الذِّكر كلّ أوان
خلق الخلق للعبادة كلهم — والذِّكر منها أعظم الإيمان
ثمَّ الصَّلاة على الرَّسول العابد — خير الورى ذكرًا بلا نكران

■ وممن راسلنا ـ أيضًا ـ الأخ العزيز فريد بو بشير ـ حفظه الله ـ من قرية تاركيت من بلدية آيت يحيى موسى بمدينة تيزي وزو، فبارك الله في عمله، ووفَّقه لمزيد من الخير والنَّفع.

■ كما وصلتنا قصيدة هائية بعنوان «يا رامي السَّبع الطِّباق» للأخ المكرَّم محمَّد الصَّالح أنصر ـ إمام أستاذ بالشَّرق الجزائري يدافع بها عن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها يقول في مطلعها:

أين القراطس والمداد وريشتي — أين الخواطر من فؤادي نبعُها
أين القوافي الثَّائرات تحرَّرت — فتلألأ مثل الجواهر رسمُها
تأبى انسياقًا إن تردها سهلة — تأبى القياد إذا هممت بجرها
تأبى انصياعًا إن تهنها آمرا — تأبى الخضوع إن أردت هوانها

إلى أن يقول:

وفدًى لأمِّ المؤمنين فما الَّذي — يبقى عزيزًا أو يصان دونها
لا المال يبقي لنا الحياة هنية — ولا البنون إذا رضينا سبَّها

وقد جاءت في سبع وسبعين بيتًا، وهي جميلة رائقة، بارك الله في صاحبها وأجزل له المثوبة.

■ كما بعث إلينا الأخ الكريم عبد الكريم بن ميداني ـ حفظه الله ـ من منطقة الرقيبة بمدينة الوادي بمقال تحت عنوان «الولاء والبراء» فجزاه الله أحسن الجزاء على كتابته، والله الموفق.

■ وممَّن يشكر كثيرًا ـ أيضًا ـ الأخ الفاضل مصطفى بن الشَّيخ ـ وفَّقه الله ـ من مدينة برج بوعريريج على نظمه المبارك الموسوم بـ « فتحُ ربِّ البَرِيَّات بنظم شروط وأركان الصَّلاة »

■ ونشكر الأخ الطَّالب الثَّانوي نذير بوزيدي ـ وفَّقه الله ـ من مدينة خنشلة على محاولته الشِّعرية، وهي عبارة عن أبيات في ذكر بعض حقائق ومخازي الرَّافضة، فنسأل الله له التَّوفيق في كلِّ أموره.